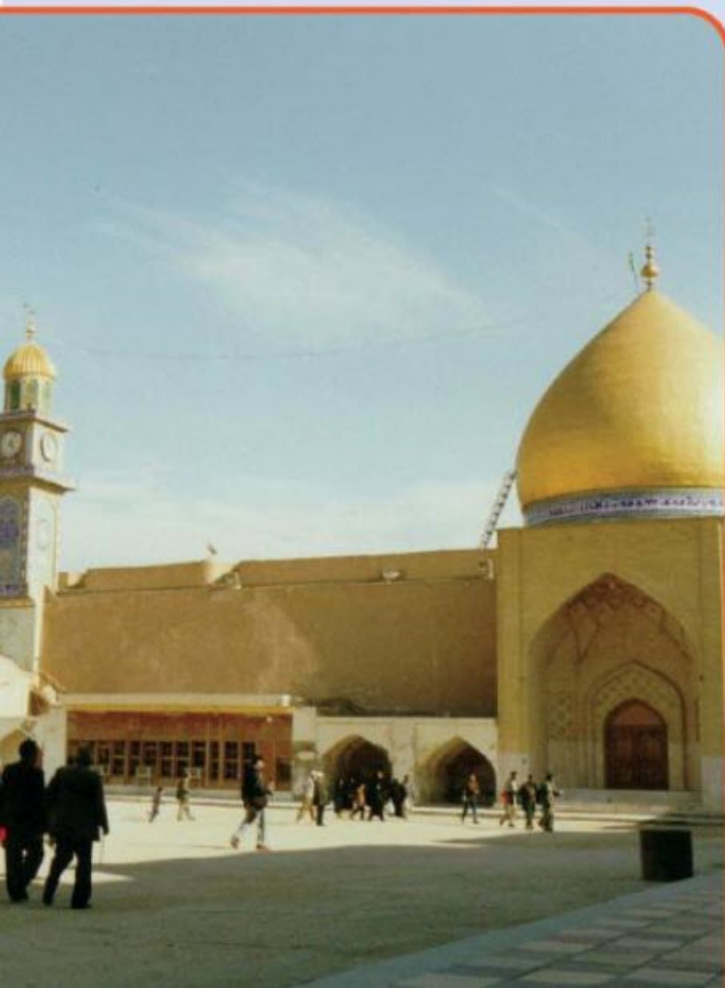


# حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة، المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها العظم  
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد السابع . شوال ١٤٣٨ هـ / تموز ٢٠١٧ م



٧



دائرة التراث والتاريخ  
أمانة مسجد الكوفة  
والمزارات الملحقة به

المشرف العام  
السيد محمد مجيد الموسوي

رئيس التحرير  
د. كامل سلمان الجبوري

# خصائص حكم الحجاج بن يوسف الثقفي

## كما تعكسه خطبته السياسية في الكوفة

السيد مثنى محمد رضا الشرع

الحوزة العلمية في النجف الاشرف

### ولاية الحجاج على العراق

اختاره الأمويون فألقى القلم وامتشق الحسام للدفاع عن حكمهم المتزعزع في المشرق، وفي سنة ٧٥ هـ استقدمه عبد الملك بن مروان وعهد إليه بولاية العراق والمشرق الإسلامي ليخمد الفتن في العراق ويعيد هيبة الأمويين ونفوذهم إليها، وكان العراق متمرداً ساخطاً يعج بالفتن والثورات، لقد امتاز الحجاج بن يوسف بالحزم والشدة فلم تأخذه هودة في معاملة من يخرج عن الطاعة والواقع انه لم يرتفع بعد ذلك رأس على الحجاج الصارم إلا وقطعه أو تطاول عنق إلا وناله وسوء كان الحجاج على حق فيما فعل أم لا فان سياسة البطش والوسائل الحازمة التي اتخذها أقرت النظام في العراق والمشرق الإسلامي<sup>(٢)</sup>.

وقد قام الحجاج بالقضاء على الثورات المسلحة التي قامت ضد سلطة الأمويين منها ثورة مطرف بن المغيرة بن شعبة وثورة عبد الرحمن بن محمد فبعد أن قضى الحجاج بن يوسف الثقفي على عبد الله بن الزبير في مكة وعلى مصعب بن الزبير في الكوفة، ولأه عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٥ م) بلاد الحجاز وذلك في سنة (٧٣ هـ - ٦٩٢ م) فظل بها الحجاج حتى سنة (٧٥ هـ - ٦٩٤ م) حيث ولاه العراق.

خرج الحجاج من المدينة حين أتاه كتاب عبد الملك بن مروان بولاية العراق بعد وفاة بشر بن مروان في اثني عشر ركباً على النجائب حتى دخل الكوفة حين انتشر النهار فجاءه، فبدأ الحجاج بالمسجد فدخله ثم صعد المنبر وهو ملتئم بعمامة خز حمراء فقال عليّ بالناس، فحسبوه وأصحابه خارجية،

### بسم الله الرحمن الرحيم

#### مقدمة

هو الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن متعب بن مالك الثقفي ولد بالطائف سنة ٤١ هـ / ٦٦١ م أو سنة ٤٢ هـ / ٦٦٢ م ونشأ فيها ثم اشتغل بالتعليم، وكان اسمه كليب ثم أبدله بالحجاج وأمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي الصحابي الشهيد، نشأ في الطائف وتعلم القرآن والحديث والفصاحة، ثم عمل في مطلع شبابه معلم صبيان مع أبيه يعلم الفتية القرآن والحديث، ويفقههم في الدين، لكنه لم يكن راضياً بعمله هذا على الرغم من تأثيره الكبير عليه، فقد اشتهر بتعظيمه للقرآن كانت الطائف تلك الأيام بين ولاية عبد الله بن الزبير وبين ولاية الأمويين لكن أصحاب عبد الله بن الزبير تجبروا على أهل الطائف فقرر الحجاج الانطلاق إلى الشام حاضرة الخلافة الأموية المتعثرة، التي تركها مروان بن الحكم نهياً بين المتحاربين. في الشام التحق بشرطة الإمارة رأى فيه روح بن زنباع العزيمة والقوة الماضية فقدمه إلى الخليفة عبد الملك بن مروان وكان داهية مقدماً جمع الدولة الأموية وحماها من السقوط فأسسها من جديد إذ أن الشرطة كانت في حالة سيئة وقد استهون جند الإمارة عملهم فتهاونوا فأهم أمرهم عبد الملك بن مروان وعندها أشار عليه روح بن زنباع بتعيين الحجاج عليهم فلما عينه أسرف في عقوبة المخالفين وضبط أمور الشرطة فضم الحجاج إلى الجيش الذي قاده بنفسه لحرب مصعب بن الزبير<sup>(١)</sup>.

(٢) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ص ١٧٠، تاريخ العرب، ج ٢ ص ٢٧١

(١) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ص ١٧٠، تاريخ العرب، ج ٢ ص ٢٧١، المعارف ص ٣٩٥، مروج الذهب ج ٣، ص ١٣٧

إنما هو انتضاء السيف ثم لا اغمدهُ في شتاء ولا صيف حتى يقيم الله لأمر المؤمنين أودكم، ويذل له صعبكم، إني نظرت فوجدت الصدق مع البر ووجدت البر في الجنة ووجدت الكذب مع الفجور ووجدت الفجور في النار، ألا وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم، وإشخاصكم إلى محاربة عدوكم مع المهلب وقد أمرتكم بذلك، وأجلت لكم ثلاثاً، وأعطيت الله عهداً يؤاخذني به ويستوثقه مني أن لا أجد أحداً من بعث المهلب بعدها إلا ضربت عنقه، وانتهبت ماله<sup>(٢)</sup>.

ثم أمر بكتاب عبد الملك بن مروان فقرأ على أهل الكوفة فلما قال القارئ: أما بعد سلام عليكم فإني أحمد الله إليكم، قال له: اقطع، ثم قال الحجاج وهو غضبان: يا أهل العراق يا أهل النفاق ومساوي الأخلاق يا أهل الفرقة والضلال، يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون عليه السلام؟ أما والله لئن بقيت لكم لأنجرنكم نجر العود، ولأؤدبكم أدباً سوى هذا الأدب، هذا أدب ابن سمية - وهو صاحب شرطة كان بالعراق - اقرأ يا غلام الكتاب فلما بلغ السلام قال أهل المسجد: وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته، ثم نزل وأمر للناس بأعطياتهم والمهلب يؤمن بمهرجان قد قاتل الأزارقة<sup>(٣)</sup> كان مجيء الحجاج بن يوسف إلى الكوفة في شهر رمضان سنة ٧٥ هجرية.

كانت خطبة الحجاج هذه كلها احتقار واستهتار بأهل العراق ومن هذه الخطبة نتبين السياسة التي رسمها الحجاج للسير عليها مع أهل العراق وهي سياسة حزم ممزوج بالظلم والجبروت.

ولا غرو إذا قلنا أن الحجاج أخذ الناس من دون هودة وقتلهم على الريبة والظنة، ولما فرغ من أهل الكوفة سار إلى البصرة وخطب فيها خطبة لا تختلف في معناها ومرماها عن خطبته بالكوفة ومن ثم عمل على معاونة المهلب بن أبي صفرة في حرب الخوارج.

بعد وفاة بشر بن مروان بن الحكم (٧٤هـ - ٦٩٣ م) فقد اعتل علة شديدة واستسقى بطنه فمات في البصرة فقد ترك منصب ولاية العراق شاغراً، بالإضافة إلى الشعور القوي المعادي للأمويين وخاصة في الكوفة كان العراق مهدداً باستمرار من الخوارج يضاف إلى ذلك طبيعة القبائل العربية هناك القائمة على إثارة الاضطرابات وعدم الخضوع للسلطة ولهذا فإن ولاية العراق كانت أكثر مسؤولية من أي منصب آخر في جميع أنحاء الإمبراطورية ومن جهة أخرى فإن

فهموا به وهو جالس على المنبر ينتظر اجتماعهم، فاجتمع الناس وهو ساكت قد أطل السكوت فلما غص المسجد بالناس، قام الحجاج فكشف عن وجهه وقال:

أنا ابنُ جلا وطلّاعُ الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني أما والله إني لأحملُ الشر محمله وأأخذه بفعله وأجريه بمثله، وإني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، إني لأنظر إلى الدماء بين العمام والمحي قد شممت عن ساقها تشميراً.

هذا أوان الحرب فاشتدي زيم قد لفها الليل بسواق حطّم ليس براعي إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضّم قد لفها الليل بعصبي أروع خراج من الدوي مهاجر ليس بأعرابي

ليس أوان بكر الخلاط جاءت به والقلص الاعلاط تهوي هوي سابق الغطاط

إني والله يا أهل العراق ما أغمز كنتغماز التين، ولا يقع لي بالشنان، ولقد فُرت عن ذكاء، وجريت إلى الغاية القصوى ثم قرأ «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمَنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» (النحل: ١١٢) وانتم أولئك وأشباه أولئك فاستوثقوا واستقيموا، فو الله لأذيقنكم الهوان حتى تدرؤا، ولا عصيكنم عصب السلّة حتى تذلّوا، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل حتى تذروا العصيان وتنقادوا ولأقرعنكم قرع المروة حتى تلتينوا، إني والله ما أعد إلا وفيت، ولا أخلق إلا فريت، فأياي وهذه الجماعات فلا يركب رجل إلا وحده، أقسم بالله لتقبلن على الإنصاف ولتدعن الإرجاف، وقيلاً وقالاً وما تقول وما يقول واخبرني فلان، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلًا في جسده، فيم أنتم وذاك؟ والله لتستقيمن على الحق أو لأضربنكم بالسيف ضرباً يدع النساء أيامي، والوالدان يتامى حتى تذروا السّمهي، وتقلعوا عن هؤلاء، ألا إنه لو ساغ لأهل المعصية معصيتهم ما جبي فيء، ولا قوتل عدو، ولعطلت الثغور، ولولا أنهم يغزون كرهاً ما غزوا طوعاً وقد بلغني رفضكم المهلب وإقبالكم على مصركم عاصين مخالفين وإني أقسم بالله لا أجد أحداً بعد ثلاثة إلا ضربت عنقه وأنهبت داره!<sup>(١)</sup>

وزاد المؤرخ المسعودي (٣٤٦هـ - ٩٥٧ م) قائلاً: فأسرعوا واستقيموا، واعتدلوا ولا تميلوا، وشايعوا وبايعوا واخضعوا واعلموا أنه ليس مني الإكثار والإهدار، ولا منكم الفرار والنفار،

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ١٠٦

(٣) مروج الذهب، ج ٣ ص ١٠

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٨٤، الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٣٧٥

الكوفي الأزدي (ت ١٥٧هـ / ٧٧٣ م) أو أن الاثنين أخذاً من مصدر واحد.

أما مطرف فلم يستطع أن يصبر على الظلم الفادح الذي أنزله الحجاج بالمسلمين فترك المدائن وأعلن الثورة بمن معه ومن أجابه من أصحابه.

قال الطبري وابن الأثير: إن بني المغيرة بن شعبة كانوا صلحاء أشرافاً بأنفسهم مع شرف أبيهم ومنزلتهم من قومهم فلما قدم الحجاج بن يوسف ورآهم على أنهم رجال قومهم فقام به:

١. عين عروة بن المغيرة على الكوفة

٢. مطرف بن المغيرة على المدائن

٣. حمزة بن المغيرة على همدان

وكانوا في أعمالهم أحسن الناس سيرةً وأشدّهم على المريب<sup>(٥)</sup>.

وبعدما وصل مطرف إلى المدائن ألقى فيهم خطبة بين فيها أنه سوف يحكم بالعدل والحق. وهكذا فإن مطرفاً كان والياً على المدائن عام (٧٧هـ - ٦٩٦ م) في الوقت نفسه كان الحجاج بن يوسف مشغولاً بحرب شبيب الخارجي وعندما تقدم شبيب نحو الكوفة من (ساتيدما) كتب مطرف إلى الحجاج قائلاً له: أما بعد فإنني أخبر الأمير أن شبيباً قد أقبل نحونا فإن رأى الأمير أن يمدني برجال اضبط بهم المدائن فإن المدائن باب الكوفة وحصنها. فأرسل الحجاج له أربعمئة رجل عليهم (سيرة بن عبد الرحمن بن مخنف) و (عبد الله بن كنان) وكان شبيب في هذا الوقت قد وصل إلى (بهر سير) حيث اتخذ معسكره هناك<sup>(٦)</sup>.

ولما أدرك مطرف قرب شبيب قطع الجسر الذي يربط (ببهرسير) وكتب إلى شبيب يطلب إليه إرسال رجال ثقات من أتباعه يدارسهم القرآن وينظر ما يدعون إليه، فبعث إليه شبيب كل من (سويد بن سليم) وقعنّب والمحلل بن وائل) فسألهم مطرف عما يدعون إليه، قالوا: ندعو إلى كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) وإن الذي نقمنا من قومنا الاستئثار بالفيء وتعطيل الحدود والتسلط بالجبرية.

فقال لهم مطرف: ما دعوتكم إلا إلى حق، وما نقمتكم إلا جوراً ظاهراً، أنا لكم على هذا متابع، فبايعوني إلى ما دعوتكم إليه ليجتمع أمري وأمركم وتكون يدي ويدكم واحدة، فقالوا: هات اذكر ما تريد أن تذكر، فإن يكن ما تدعوننا إليه حقاً نُجَبِّك.

القسوة التي استعاد بها الحجاج بن يوسف الأمن والاستقرار في الحجاز والمعاملة على الشدة والتميز التي أظهرها للناس هناك جعلت عبد الملك بن مروان ينقله إلى العراق<sup>(١)</sup>.

وعندما وصل الحجاج إلى العراق قام بتغيير العمال الذين عينهم بشر بن مروان على الأمصار الإسلامية. ويبدو أن الحجاج بدلاً من أن يتبع الأسلوب القبلي في التعصب فإنه كان يقدم الرجال على أساس ثقته بهم واعتقاده بكفاءتهم أي أنه كان يتبع نظاماً شخصياً في التعصب أكثر منه غير ذلك.

يصف المؤرخ الألماني كارل بروكلمان (١٨٦٨-١٩٥٦) مهمة الحجاج في العراق بقوله: ..... كان العراق أهم بلدان الإمبراطورية الإسلامية بعد سوريا التي تعتبر نواتها والحجاج بن يوسف تقلد الأمر هناك سنة ٦٩٣ م، كانت مهمة الحجاج في العراق عسيرة جداً، فقد غلظت قلوب العراقيين بفعل الحروب المتطاولة في سبيل الخلافة ففي الكوفة كان الهياج الناشئ عن الاضطرابات التي ثارت أيام المختار الثقفي لا يزال يحدث ذعراً ورعدة وكان الخوارج لا يزالون معسكرين خارج أبواب البصرة وظهرت فرقة جديدة هي فرقة الأزارقة، وثمة زعيم خارجي ظل يهدد العراق من الموصل طوال سنتين هو شبيب الخارجي<sup>(٢)</sup>.

وفي سنة (٧٧هـ - ٦٩٦ م) ثار مطرف بن المغيرة بن شعبة الثقفي على الحجاج بن يوسف وخلع عبد الملك بن مروان، لقد كان مطرف أشرف من أبيه المغيرة الذي كان يحابي الأمويين على دينه وقومه ويخدعهم بكل ما لديه من الوسائل حتى النفس الأخير من حياته لقاء مصالحه الشخصية<sup>(٣)</sup>.

يذكر ابن قتيبة البغدادي (ت ٢٧٦هـ - ٨٨٩ م): كان المغيرة بن شعبة قد صاحب قوماً من المشركين إلى مصر فقتلهم غيلة وأخذ ما معهم من مال واتي النبي محمد (ﷺ) واسلم وشهد بيعة الرضوان وشهد اليمامة وفتوح الشام واليرموك والقادسية، وولاه عمر بن الخطاب البصرة، فأفتتح ميسان ودستميسان و ابزقباذ و سوق الأهواز وهمدان وشهد فتح نهاوند ومات بالكوفة بمرض الطاعون سنة (٥٠هـ - ٦٧٠ م)<sup>(٤)</sup>.

إن معلوماتنا عن ثورة مطرف بن المغيرة تأتي من رواية ابن الكلبي وهو (هشام بن محمد بن الساري) في كتاب انساب الأشراف أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩هـ - ٨٩٢ م)، ورواية أبي مخنف وهو لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم

(١) الفتوح ج ٦ ص ٣١٨

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ١٤٣

(٣) الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ ص ٣٦٠

(٤) المعارف ص ٣٩٤

(٥) الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٤٣٤، تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٢٨

(٦) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٢٩



ثم أن مطرف وجد نفسه أمام خيارين لا ثالث لهما، فقد وجد نفسه الآن بين الحجاج وشبيب إذ خشي عقاب الحجاج وهجوم شبيب لذلك قرر ترك المدائن واتجه نحو الدسكرة وهناك جمع البارزين من أتباعه وأخبرهم لأول مرة عزمه على الثورة فأعلن خلع الحجاج وعبد الملك وقد أعطى الخيار لاتباعه في أن يتبعوه أو يرجعوا إلى مدينتهم فبايعوه فقال لهم: أما بعد، فإن الله كتب الجهاد على خلقه وأمر بالعدل والإحسان وقال فيما أنزل علينا ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ - (المائدة: ٢) واني أشهد الله إنني خلعت عبد الملك بن مروان والحجاج فمن أحب منكم صحبتي وكان على مثل رأيي فليتابعني، فإن له الأسوة، لست أحب أن يتبعني من ليست له نية في جهاد أهل الجور ادعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى قتال الظلمة، فإذا جمع الله لنا أمرنا كان هذا

الأمر شورى بين الناس يرتضون لأنفسهم من أحبوا<sup>(٣)</sup>.

فبايعه البعض على ذلك ورجع عنه البعض وكان ممن تركه ورحل (سبرة بن عبد الرحمن بن مخنف) فجاء إلى الحجاج وقاتل شبيباً مع أهل الشام. وخرج مطرف بأصحابه من الدسكرة متوجهاً نحو حلوان حيث كان (سويد بن عبد الرحمن السعدي) والياً للحجاج هناك، ومن أجل كسب رضا الحجاج خرج سويد بجيش صغير ضد مطرف ولكنه كان متردداً في قتاله بسبب ميله إليه فطلب سراً ترك حلوان ففعل ذلك وذهب إلى همدان حيث كان أخاه حمزة بن المغيرة والياً عليها، وفي طريقه اعترضه الأكراد ولكنه هزمهم في مكان يقال له الثانية<sup>(٤)</sup>.

وعندما وصل مطرف إلى همدان أرسل إلى أخيه حمزة طالباً منه المساعدة وجاء في نص الطلب: أما بعد، فإن النفقة قد كثرت والمؤنة قد اشتدت، فأمدد أخاك بما قدرت عليه من مال وسلاح. فأرسل إليه حمزة ما طلب سراً وسار مطرف حتى وصل إلى مدينة قم ثم وصل إلى مدينة كاشان، وبعث عماله على تلك النواحي، وكتب إليهم مطرف قائلاً: أما بعد فإننا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وإلى جهاد من عُدَّ عن الحق واستأثر بالفيء، وترك حكم الكتاب فإذا ظهر الحق ودُمغ الباطل، وكانت كلمة الله هي العليا وجعلنا هذا الأمر شورى بين الأمة يرتضي المسلمون لأنفسهم الرضا، فمن قبل هذا منا كان أخانا وولينا في محيانا ومماتنا ومن ردَّ ذلك علينا جاهدناه وانتصرنا بالله عليه فكفى بنا عليه حجة، بتركه الجهاد في سبيل

قال مطرف لهم: ادعوكم إلى أن نقاتل هؤلاء الظلمة العاصين على إحدائهم الذي أحدثوه وأن تدعوههم إلى كتاب الله وسنة نبيه، وأن يكون هذا الأمر شورى بين المسلمين يؤمرون عليهم من يرضون لأنفسهم على مثل الحال التي تركهم عليها عمر بن الخطاب، فإن العرب إذا علمت أن ما يراد بالشورى الرضى من قريش رضوا، وكثروا تبعكم وأعانكم على عدوكم وتم لكم هذا الأمر الذي تريدون.

فقالوا له: هذا ما لا نجيبك إليه وقاموا من عنده أربعة أيام، فلم تجتمع كلمتهم، فساروا من عنده، واحضر مطرف نصحاء وثقاته فذكر لهم ظلم الحجاج وعبد الملك وأنه ما زال يؤثر مخالفتهم ومناهضتهم وأنه يرى ذلك ديناً لو وجد عليه عوناً وذكر لهم ما جرى بينه وبين أصحاب شبيب وإنهم لو تابعوه على رأيه لخلع عبد الملك بن مروان والحجاج واستشار فيما يفعل<sup>(١)</sup>.

لا تذكر مصادرنا المعتمدة والمعتبرة ما إذا كان هذا الطلب المفاجئ من مطرف إلى الخوارج ناشئاً عن مشاركة مطرف الوجدانية للخوارج قضيتهم أم أنه كان - مطرف - يقصد أن يبين لهم أخطأهم وعلى أية حال فقد وافق شبيب على طلبه وقد ابلغ رجال شبيب مطرفاً بأن قضيتهم هي الرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيه وأن الذي نقموه على قومهم هو الاستئثار بالفيء وتعطيل الحدود والتسلط بالجبرية.

وقد وافقهم على جميع آرائهم هذه وظهر كما لو كان يريد الانضمام إليهم، ولكنه أصر على أن تكون الخلافة انتخابية ولكن حصرها في قريش، إذ اعتقد بأن جعل الخلافة في قريش سيجمع تحت لوائهم جميع العرب بسهولة<sup>(٢)</sup>.

وهكذا فإن كلاً من إصراره على خليفة قريش وتأكيده على تأييد العرب بعد عنه الخوارج الذين كانوا يرون أن أكثر الرجال أهلية من المسلمين هو الذي يجب انتخابه خليفة بغض النظر عن عائلته أو قبيلته إذ لا يضرهم أن يكون مؤيديهم من العرب أو الموالي والعبيد ومع ذلك فإن هذا الاهتمام الذي أبداه مطرف في حركتهم شجع شبيباً على المحاولة مرة أخرى في كسبه إلى جانبه، فأرسل بعض أتباعه إلى مطرف ليقنعه بأن ليس بقريش حق في الخلافة أكثر من أي عربي آخر، ولكن من دون جدوى.

وهكذا فإن المفاوضات انتهت بين الطرفين من دون جدوى تذكر بعد أن استمرت أربعة أيام متواصلة.

(٣) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٣١

(٤) المصدر السابق ج ٤ ص ٢٣٢

(١) الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٤٣٤

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٣٠

أما تقسيم جيش مطرف فكان كالاتي:

١. الحجاج بن جارية - وقف على الميمنة
  ٢. الربيع بن يزيد الأسدي - وقف على الميسرة
  ٣. سليمان بن صخر المزني - وقف على الحامية
  ٤. يزيد بن زياد وهو مولى أبيه المغيرة بن شعبة - معه الراية
- فاقتتل القوم قتالاً شديداً، فُقتل يزيد بن زياد صاحب راية مطرف وجماعة كثيرة من أصحابه قتلته (عمير بن هبيرة الفزاري) وحُمل رأسه. فكان ذلك الصك الذي قربته عند الأمويين.
- وقُتل من أصحاب مطرف (عبد الرحمن بن عبد الله بن عفيف الأزدي) وكان هذا الرجل إنساناً ناسكاً عفيفاً وبعث (عدي بن زياد الأيادي) قواد الجيش الذين قاتلوا أصحاب مطرف إلى الحجاج بن يوسف، فأكرمهم وأحسن إليهم، وآمن عدي بن زياد كل من: بكير بن هارون وسويد بن سرحان وغيرهم. وطلب منه الأمان للحجاج بن حارثة الخثعمي، فبعث إليهم كتاب الحجاج يأمره بإرساله إليه إن كان حياً فاخترق ابن حارثة حتى عُزل عدي بن زياد، ثم ظهر ابن حارثة في إمارة ابن عتاب بن ورقاء<sup>(٣)</sup>.

### عوامل إخفاق الثورة

١. لعل من أهم العوامل التي ساعدت على إخفاق هذه الثورة هي بصورة غير مقصودة بالطبع المفاوضات التي دارت بين مطرف وشبيب الخارجي وقد استمرت طيلة أربعة أيام منعت شبيب من مفاجأة جيوش أهل الشام التي كانت في طريقها إلى الكوفة لمساعدة الحجاج، كما أنها من جهة أخرى أعطت وقتاً (لتعاب بن ورقاء الرياحي) ليصل إلى الكوفة من كرمان ليقود الجيش الذي أعدّه الحجاج بن يوسف ضد شبيب الخارجي<sup>(٤)</sup>
٢. يضاف إلى ذلك تفرق أصحاب مطرف عنه وتركه وحيداً بمن معه من الجند القليل ليوأجهون جيشاً جراراً قوامه ستة آلاف مقاتل كما يقدره المؤرخون. ورجع عنه البعض من أصحابه وكان ممن تركه ورحل (سبرة بن عبد الرحمن بن مخنف) فجاء إلى الحجاج بن يوسف وقاتل شبيباً مع أهل الشام.
٣. إصرار مطرف على أن تكون الخلافة انتخابية ولكن حصرها في قریش، إذ اعتقد بأن جعل الخلافة في قریش سيجمع تحت لوائهم جميع العرب وبسهولة كما يذكر الطبري.

الله غبناً وبمداهنته في أمر الله وهذا. إن الله كتبه على المسلمين وسماه كرهاً ولن يُنال رضوان الله إلا بالصبر على أمر الله، وجهاد أعداء الله، فأجيبوا رحمكم الله إلى الحق وادعوا إليه من ترجون إجابته، وعرفوه ما لا يعرفه، وليقبل إلي من رأى رأينا وأجاب دعوتنا ورأى عدوه عدونا أرشدنا الله وإياكم وتاب علينا وعليكم إنّه هو التواب الرحيم والسلام. واتاه الناس ليلابعوهُ وكان ممن أتاه (سويد بن سرحان الثقفي، وبكير بن هارون النخعي وهو من الري) في نحو مائة رجل.

وعندما وصل الخبر هذا إلى والي أصبهان وهو البراء بن قبيصة كتب على الفور إلى الحجاج بن يوسف قائلاً له: أما بعد فإن كان للأمير أصلحه الله حاجة بأصبهان وغير أصبهان فليبعث إلى مطرف جيشاً كثيفاً يستأصله ومن معه، فإنه لا تزال عصابة قد انتفخت له من بلدة من البلدان حتى توافيه بمكانه الذي هو فيه، فإنه قد استكثف وكثر تبعه والسلام. وعندما وصل كتاب البراء بن قبيصة إلى الحجاج كتب إليه قائلاً: أما بعد، إذ أتاك رسولي فعسكر بمن معك، فإذا مرّ بك عدي بن وتاد فأخرج معه في أصحابك واسمع وأطع، والسلام<sup>(١)</sup>.

فأمده الحجاج بالرجال على الدواب عشرين عشرين وعشرة عشرة حتى وصل الجيش ستة آلاف مقاتل. وفي هذه الأثناء عزل الحجاج بن يوسف وإليه على المدائن حمزة بن المغيرة وكتب إلى قيس بن سعد العجلي وهو صاحب الشرطة بهمدان أن يقيض على حمزة بن المغيرة ويزجه بالسجن، فأوثقه وحبسه في السجن وتولى قيس العجلي أمر همدان. وفرغ قلب الحجاج من هذه الناحية لقتال مطرف وأصحابه، وكان يخاف مكان حمزة بهمدان لئلا يمد أخاه بالمال والسلاح ولعله ينجده بالرجال. وكتب الحجاج بن يوسف إلى عدي بن وتاد الأيادي وهو حاكم الري، يأمره بالمسير إلى مطرف بن المغيرة وبالممر على البراء بن قبيصة وهو حاكم أصبهان فإذا اجتمعوا فالأمير هو عدي بن وتاد. لقد كان تعداد الجيش الذي يقوده عدي بن وتاد موزعاً كالاتي:

١. قبيصة القحافي ومعه تسعون مقاتل من أهل الشام.
  ٢. عدي بن وتاد الأيادي ومعه ثلاثة آلاف مقاتل من أهل الري
  ٣. البراء بن قبيصة ومعه ألف مقاتل من أهل الكوفة، وسبعمائة من أهل الشام، وألف رجل من أصفهان والأكراد. فكان المجموع ستة آلاف مقاتل.
- واجتمع عدي بن وتاد الأيادي والبراء بن قبيصة وسارا نحو مطرف فخذقا عليه<sup>(٢)</sup>.

(٣) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٣٦، الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٤٣٧

(٤) الخلافة الأموية ص ٣٠٠

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٣٣

(٢) الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٤٣٦

يدعو إلى الحكم بالحق في السيرة وعلى الرغم من فشل هذه الحركة الإصلاحية فإن الرغبة في تحقيق ما كانت ترمي إليه من الإصلاح كانت لا تزال تحفز الناس على معاودتها من حين إلى آخر<sup>(٢)</sup>، فقد اعتبره أحد الأشراف ولم يقل أنه خارجي.

أما المؤرخ الألماني (يوليوس فلهوزن ١٨٤٤ - ١٩١٨) فيقول: لم يكن مطرف يشبه أباه، وكانت له ميول شديدة نحو الخوارج ولكنه لم يشأ أن يكون تابعاً، كما لم يشأ أن يقاتله فأخلى المداخن وخرج نحو الجبال حيث لقي نهايته، وباستيلاء شبيب على المداخن احتل مركزاً منيعاً، ولكنه يبدو أنه لم يستفد منه كثيراً<sup>(٣)</sup>.

ورأي يوليوس فلهوزن غير دقيق في مطرف و ثورته ومن الجدير بالذكر هنا أن اتصال مطرف بشبيب أو تهجم مطرف على الخليفة ووصفه بالظالم لا يجعلان منه بالضرورة خارجياً، إذ بينما يتمسك الخوارج بشدة بأن كل مسلم غير مطعون في خلقه ودينه أهل في أن ينتخب خليفة حتى لو كان حشيشياً. ونحن نرى مطرف يقصر هذا الأمر أو الحق على قريش وحدها إضافة إلى أنه لا الخوارج ولا اتباع مطرف نفسه أشاروا إليه كأحد الخوارج كذلك لا مطرف ولا أحد من أتباعه تبنا شعار الخوارج المعروف (لا حكم إلا لله) وأكثر من ذلك أيضاً أنه لم يترك بعده أتباعاً يبشرون بمبدأ معين وبناءً على جميع هذه الأسباب يمكننا أن نتفق مع المؤرخ أحمد بن يحيى البلاذري بأن دوافع مطرف كانت من دون شك مماثلة لدوافع القراء والزهاد والعباد.

كما أن اتصاله مع شبيب ربما كان محاولة منه لكسبه إلى جانبه طالما أنهما متفقان على معارضة النظام الأموي الظالم آنذاك المتمثل بالحجاج بن يوسف وان نجاحات شبيب العسكرية ربما شجعت مطرفاً على الحصول على تأييد ولكنه عندما فشل في ذلك فشل في الحصول على النصر وكانت ثورته ذات عمر قصير ولم تترك أثراً على المجتمع الإسلامي في تلك الفترة عكس ثورة زيد بن علي بن الحسين.

لقد كان مطرف بن المغيرة حي الضمير، فلم يُعم عينيه السلطان الذي حباه به الأمويون عن إدراك الظلم الفادح الذي ينزلونه بالناس هذا هو منهج ثورة مطرف وفيها عيب من روح كربلاء<sup>(٤)</sup>.

ومن دون شك فإن استجابة الجماهير المسلمة من الشيعة وغيرهم لثورة مطرف وابن الأشعث وابن الجارود

وهكذا فإن كلاً من إصراره على خليفة قريش وتأكيده على تأييد العرب أبعده عن الخوارج الذين كانوا يرون أن أكثر الرجال أهلية من المسلمين هو الذي يجب انتخابه خليفة بغض النظر عن عائلته أو قبيلته إذ لا يضرهم أن يكون مؤيديهم من العرب أو الموالي والعبيد. ومع ذلك فإن هذا الاهتمام الذي أبداه مطرف في حركتهم شجع شبيباً على المحاولة مرة أخرى في كسبه إلى جانبه، فأرسل بعض أتباعه إلى مطرف ليقتنعه بأن ليس بقريش حق في الخلافة أكثر من أي عربي آخر، ولكن من دون جدوى وباءت المحاولة بالفشل.

٤. افتقاره إلى المؤنة والأموال ويتبين ذلك من خلال رسالته إلى أخيه حمزة فعندما وصل مطرف إلى همدان أرسل إلى أخيه حمزة طالباً منه المساعدة وجاء في نص الطلب: أما بعد، فإن النفقة قد كثرت والمؤنة قد اشتدت، فأمدد أخاك بما قدرت عليه من مال وسلاح. فأرسل إليه حمزة ما طلب سراً وسار مطرف حتى وصل إلى مدينة قم....

### آراء المؤرخين في الثورة

أما طبيعة المؤرخين فيختلفون حول هذه الثورة التي قادها مطرف بن المغيرة. فيمر أبو مخنف لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف بن سليم الكوفي الأزدي (ت ١٥٧هـ/٧٧٣م)، بهذه ثورة من دون أن يذكر شيئاً عن دوافعها أو أن يلزم بنفسه بأي تفسير لطبيعتها.

أما الهيثم بن علي فيقول: إن مطرفاً كان يعتقد إنكار المنكر ولا يبلغ قول الخوارج.

وأما أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩ هـ - ٨٩٢ م) فعند تقييمه لآراء مطرف فيقول: وقال بعضهم كان مطرف مع رأي الخوارج وإنما ذلك باطل إنما كان رأيه كراي من خرج مع ابن الأشعث من القراء وقد خرج مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث من القراء والزهاد والعباد ومنهم (محمد بن سعد بن أبي وقاص، عبد الرحمن بن أبي ليلي، عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي، عامر بن شراحيل الشعبي، وزاذان أبو عمر مولى كندة، أبو البخترى الطائي، مسلم بن يسار سعيد بن جبير وأشباههم من الناس)<sup>(١)</sup>

أما فان فلوطن فيقول: ولم يكن أولئك القراء - أعني المشتغلين بدراسة التوحيد - وحدهم يكرهون النظام الأموي ففي شمال العراق خرج (أحد الأشراف) على بني أمية وهو مطرف بن المغيرة بن شعبة الذي ثار في شمال العراق وكان

(٢) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات، ص ٥٧ - ٥٨

(٣) الخوارج والشيعة ص ١١٩

(٤) ثورة الحسين، مصدر سابق ص ٢٢٢

(١) الفتوح ج ٧ ص ٩٢

وطويت بموت شبيب صفحة من صفحات الفروسية النادرة. ويمتاز عصر عبد الملك بن مروان وواليه على العراق الحجاج بكثرة الحرب التي أضرم ناراها الخوارج وظهروا فيها شجاعة نادرة وبسالة ممتازة<sup>(٤)</sup>

وبعد هذه المشكلات التي عصفت بالدولة الأموية والتي واجهت الحجاج في العراق وتخلصه من الخوارج عام (٧٨هـ- ٦٩٧ م)، فقد ضمت بلاد خراسان وسجستان إلى ولاية الحجاج بن يوسف، الذي قام بدوره فعين كلاً من:

١- المهلب بن أبي صفرة والياً على خراسان.

٢- عبيد الله بن أبي بكر الثقفي والياً على سجستان.

وقد كان أول واجب للوالي الجديد في مثل هذه الولايات النائية آنذاك هو الغزو لإخضاع المناطق المجاورة وتوفير مورد جديد للحكومة المركزية، كما انه كان فرصة للتدريب والضبط في صفوف الجيش ولهذه الأسباب مجتمعة قام (عبيد الله بن أبي بكر الثقفي) بغزو بلاد رتبيل (وهو ملك بلاد كابل وزابل) وذلك عام (٧٩ هـ - ٦٩٨ م) الذي كان امتنع من دفع الجزية إلى الحجاج، فتقدم ابن أبي بكر على رأس جيش مكون من أهل الكوفة والبصرة وعليهم (شريح بن هاني الحارثي) ضد بلاد رتبيل ولكن شريح الحارثي قد أغراه التوغل في داخا البلاد عبر الممرات الجبلية الضيقة لكابلستان ومن ثم انقض عليه من الخلف أتباع رتبيل ولم يتمكن ابن أبي بكر من الانسحاب لأنه قد توسط البلاد وأخذ عليهم رتبيل العقوبات والشعاب كما فعل بامية بن عبد الله بن خالد من قبل، فبقي ابن أبي بكر لا يقدر على الخروج فبعث إلى رتبيل انك قد فعلت ذلك بغيري، ولكن ما يغنيك وما الذي تريد؟ فقال رتبيل له: أريد منك أن تحط عني خراج عشر سنين وتعطيني مليون ونصف درهم، وما معك من السلاح والكرع، وتعطيني ثلاثة من أولادك رهائن وأشرف قومك من الكوفيين والبصريين رهائن حتى أخلي لك السبيل<sup>(٥)</sup>.

فقال البصريون: أيها الأمير الرأي عندنا أن نصالحه ونعطيه ما سأل. فقال شريح بن هاني وأهل الكوفة: لا والله ما كان ذلك لرتبيل منا ابداً. فغضب ابن أبي بكر، ثم قال: ما أنت والاعتراض عليّ مما أريد، أتريد أن تنقض عليّ أمري ويقتل المسلمون. فقال شريح له: يا ابن أبي بكر إنما أنت عبد حبشي وشرفك بالبصرة حماكم وبستانك، فدع عنك هذه الرئاسة فإننا إنما قدمنا إلى هذا البلد لأجل الجهاد، والله لا مُتنا إلا عنكم ماذا نقول غداً لشباب مذبح بالكوفة؟ إنما قد اشترينا اللوم

وابن المهلب وغيرهم وإن لم يكن لتلك الثورات الطابع الشيعي الذي كان لثورة التوابين والمختار الثقفي و ثورة المدينة إلا أن الباعث لاستجابة الجماهير لها لم يكن سوى تلك الروح الثورية التي ثبتتها ثورة الإمام الحسين (عليه السلام) الخالدة في نفوس الجماهير لتقضي على روح التواكل والخنوع والاستسلام للحاكمين، ولتصنع من بني الإنسان قوة معبأة وعلى أهبة الاستعداد في وجه الظلمة والطغاة والجائرين وفراغة العصور في كل أرض وزمان ومكان، فقد قوضت عروش وكروش الأمويين وأقلقت العباسيين من بعدهم، وبقيت مستمرة تعبر عن نفسها في انفجارات عاصفة مرة هنا ومرة هناك، ولا تزال وستبقى غنية بالعطاء والمثل وحديثاً طيباً على لسان الأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها<sup>(١)</sup>.

وبعد أن تم القضاء على ثورة مطرف بن المغيرة، وتم القضاء على حركات الخوارج في العراق وخارجه أمثال حركة (شبيب بن يزيد الشيباني ونافع الأزرق ومن تبعه من قادة الأزارقة في الأهواز والبصرة) وقد استطاعت هاتان الحركتان وفي مراحل عديدة أن تهدد البصرة والكوفة بل أن الخوارج استطاعوا دخولها لفترات محدودة، ولو قُيِّض لهما أن تتمكن من المدينتين لكان في وسعهم أن يسيطروا على العراق وبلاد فارس وهما يشكلان الجزء الأكبر من الدولة الإسلامية والأكثر غنى، ولكن الخوارج فشلوا في تحقيق انتصارات مهمة. ولما رأى الحجاج بن يوسف الثقفي ضعف الكوفة عن مقاومة الخوارج وتناقل أهل العراق عن حربهم، سأل عبد الملك بن مروان أن يمدّه بجيش من أهل الشام، فبعث إليه ستة آلاف مقاتل حمل عليهم شبيب بن يزيد الشيباني أكثر من ثلاثين حملة فصمدوا حتى اضطر الخوارج إلى عبور جسر على نهر دجيل فهوت بشبيب رجل فرسه فغرق في النهر فحمل أهل الشام على أصحابه وأفنوه عن آخرهم<sup>(٢)</sup>.

وعندما سقط شبيب في الماء قال ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيْعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٤٢) فأرتمس في الماء مرة ثانية ثم ارتفع فقال ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (الأنعام: ٩٦) ثم غطس وكانت نهايته<sup>(٣)</sup> واستراح الحجاج بن يوسف من خطر الخوارج

(١) الانتفاضات الشيعية، مصدر سابق، ص ٣٦١

(٢) السيادة العربية والشيعية والإسرائيليات، ص ٩٦

(٣) جذور الشبهات قراءة في فكر الخوارج، ص ١٣٨

(٤) تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي والثقافي، ج ١ ص ٣٨

(٥) الفتوح ج ٧ ص ٧٥



وهناك روايات متناقضة عن أين كان عبد الرحمن بن محمد في وقت تعيينه قائداً لهذا الجيش، فيذكر كل من المؤرخين:

- (١) أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩هـ - ٨٩٢ م)
- (٢) محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ - ٩٢٢ م)
- (٣) ابن الأثير الشيباني (ت ٦٣١هـ - ١٢٣٣ م)
- (٤) عبد الرحمن ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ - ١٤٠٥ م)، بأنه قد أرسل إلى كرمان لإخماد تمرد قام به (هميان بن عدي السدوسي). وتذكر رواية أخرى في تاريخ الطبري وكتاب غرر السير: إن ابن الأشعث كان آنذاك في الكوفة وقد رافق هذا جيش الطواويس من هناك، وتذكر رواية ثالثة مفادها أنه كان يقاتل الخوارج.
- (٥) ويذكر المؤرخ ابن أعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ - ٩٢٦ م): إن الأشعث كان على رأس جيش الطواويس عندما خرج من الكوفة وفي أثناء تقدمه نحو سجستان أحمد عصيان (هميان بن عدي السدوسي) في كرمان<sup>(٥)</sup>. إن هذه الرواية الأخيرة تبدو وكأنهما الطريقة الأكثر إقناعاً في التوفيق بين الروايات المختلفة.

إن مصدرنا الأساسي عن هذه الثورة هو المؤرخ الطبري الذي يعتمد بصورة تكاد تكون مطلقة على رواية (أبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي الكوفي ت ١٥٧هـ - ٧٧٣ م) المأخوذة من كتابيه (كتاب دير الجماجم وخلع عبد الرحمن بن الأشعث) وكتاب (حديث باحميرا ومقتل ابن الأشعث) لقد كان أبو مخنف من أهل الكوفة وتوفي سنة (١٥٧) هجرية ولذا فقد كان معاصراً لأحداث هذه الثورة. أما مصدرنا الثاني فهو البلاذري الذي يأتي ثانياً لدراسة هذه الثورة وهو يعتمد في هذا المجال على رواية (علي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف ويكنى أبا الحسن) وقد توفي في سنة (٢٥٥هـ - ٨٣٩ م)<sup>(٦)</sup>

وهذه الرواية مفصلة كرواية أبي مخنف ولكنها تشكو من بعض الفجوات. أما ابن أعثم الكوفي فهو يتبع رواية مختلفة تماماً عن هاتين الروايتين وتمتاز بخلوها من التواريخ وعدم استمراريتها ولكنها من جهة أخرى تكاد تتفق في مضمونها العام مع رواية مؤلف كتاب غرر السير بصورة تامة ومع ذلك فإن أحمد بن يحيى البلاذري يصور ثورة ابن الأشعث وكأنها كانت نتيجة خلاف ديني بدأ بدعاية من قبل ابن الأشعث معلناً

الصهبان فقال الحجاج: لا والله لأخرجنكم من الدار أو تأتونني به وإلا ضربت أعناقكم. المعارف ص ٣٣٣، نسب قریش، ص ٤٤

(٥) الفتوح ج ٧ ص ٧٨

(٦) المعارف ص ٥٣٨

بالكرم، والكفر بالإيمان والنار بالجنة، كما فعل أمية بن عبد الله من قبل ثم قال: ألا مَنْ كان هاهنا من مذبح وهمدان فليتقدم معي إلى أعداء الله<sup>(١)</sup>. وكان شريح بن هاني قد جاوز المائة من العمر وهو أحد المعمرين وقد أدرك النبي (ﷺ) وأبا بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وقد شهد وقعة الجمل وصفين والنهروان مع الإمام علي (عليه السلام) فتقدم شريح ومعه عشرة آلاف رجل من أهل الكوفة وهو يرتجز ويقول:

أصبحتُ ذا بثٍ أقاسي الكبرا قد عشتُ بين المشركين أعصرا  
ثمة أدركنا النبي المنذرا وبعده صديقه و عمرا  
ويوم مهران ويوم تسترا والجمع في صفينهم والنهرا  
وباجميرات مع المشقرا هيهات ما أطول هذا عمرا

فلم يلبث قليلاً حتى حمل عليهم، فلم يزل يقاتل حتى خرّ صريعاً، فقتل جميع مَنْ كان معه من أهل الكوفة، ونجا مَنْ نجا منهم فخرجوا من بلاد رتبيل فاستقبلهم الناس بالأطعمة فكان أحدهم إذا أكل وشبع مات!! فلما رأى الناس ذلك أخذوا يطعمونهم السمن قليلاً حتى استمروا<sup>(٢)</sup>.

وأما ابن أبي بكرة فإنه كره الموت فصالح رتبيل ملك كابل وزابل على أن يضع عنه خراج عشر سنين ويعطيه مليون درهم، ويرهن ابنه وأشرف قومه، ففعل ثم خرج من أرض كابل حتى دخل مدينة بست.

إن أخبار هذه الخسائر الفادحة والهزيمة المهينة أغضبت الحجاج الذي كتب لعبد الملك بن مروان يستأذنه في الانتقام للمسلمين من رتبيل، وحالما إذن له عبد الملك جهز الحجاج جيشاً من أهل الكوفة وأهل البصرة كبير في عدده، عظيم في تجهيزه وعدته، حتى أطلق عليه اسم جيش الطواويس<sup>(٣)</sup>.

وقد عهد الحجاج بقيادة هذا الجيش إلى قائده (عبد الرحمن بن محمد بن قيس بن الأشعث الكندي الكوفي)<sup>(٤)</sup> وهو من سلالة ملوك كندة قبل الإسلام.

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٤٩

(٢) الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٤٥١

(٣) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٥٢، تاريخ الشعوب الإسلامية ص ١٤٥

(٤) عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس، واسم الأشعث معد يكرّب وسمي أشعث، لشعث رأسه وهو من كندة في الكوفة. وأم محمد بن الأشعث هي أم فروة بنت أبي قحافة، أخت أبي بكر لأبيه، قتل أبوه سنة ٦٧ هـ وبعد أن فشل ابن الأشعث في دير الجماجم ضد الحجاج لجأ إلى بلاد الهند، وبخديعة من الحجاج جيء به وتم قطع رأسه، فاستراح الحجاج من همه وبدأ بالقضاء على الذين اشتركوا في ثورته داخل العراق. فتوجه إلى الكوفة واستقر فيها وتوجه إلى قبيلة النخع وقال لهم: يا معشر النخع اخبروني عن كميل بن زياد من أي قبيلة هو منكم؟ فقالوا له: هو من بني

وعشرين ألفاً من أهل البصرة، جدّ في ذلك وشمر وأعطى الناس أعطياتهم كاملة، وأعطاهم خيولاً روائع، وسلاحاً كاملاً، وأخذ الحجاج في عرض الناس، ولا يرى رجلاً تذكر منه شجاعة إلاّ أحسن معونته، وانفق عليهم الحجاج مليون درهم سوى أعطياتهم، وولى هذا الجيش عبد الرحمن بن محمد، فأتى الحجاج عبد الرحمن وهو إسماعيل بن الأشعث فقال للحجاج: لا تبعثه فإنني أخافُ خلافه، والله ما جاز جسر الفرات قط فرأى لوال من الولاة عليه طاعة وسطاناً، إني أخاف خلافه. فقال له الحجاج: هو أهيب لي من أن يخالف أمري أو يخرج من طاعتي وسيّره على رأس ذلك الجيش<sup>(٤)</sup>.

ويذكر ابن اعثم: إنّ أخوة عبد الرحمن بن محمد جاءوا إلى الحجاج وليس عمه إسماعيل فيقول: وجاءت أخوة عبد الرحمن ومنهم القاسم واسحق والمنذر والصبح حتى دخلوا على الحجاج فقالوا: أيها الأمير لا توجّه عبد الرحمن في هذا الجيش، فإننا نتخوف أن يخرج عليك! فقال الحجاج لهم: ليس هذا أول حسد الأخوة، وإنما انتم حسدتموه لأنه ليس من أمكم. فقالوا: أيها الأمير أما نحن فقد مضينا ما علينا ونحن خارجون معه<sup>(٥)</sup>.

سار عبد الرحمن بن محمد و معه الجيش الكوفي والبصري متوجهاً إلى سجستان ووصل إليها عام (٨٠) هجرية. أما العلة التي من أجلها قام الحجاج بإرسال عبد الرحمن بن الأشعث، فيذكر المؤرخون: وكان الحجاج وليس بالعراق رجل ابغض إليه من عبد الرحمن بن محمد وكان يقول: ما رأيته قط إلاّ أردت قتله. والله لهممت أن اضرب عنقه، فسمع الشعبي ذلك فقال لعبد الرحمن: ما قال الحجاج فقال عبد الرحمن: والله لأحاولن أن أزيل الحجاج عن سلطانه.

وتذكر رواية أخرى في إرسال عبد الرحمن وهي: أن الحجاج كان قد ترك بكرمان هميان بن عدي السدوسي بها مسلحة إنّ احتاج إليه عامل سجستان والسند، فعصي هميان، فبعث إليه الحجاج، عبد الرحمن بن محمد فحاربه فأنهزم هميان السدوسي وأقام عبد الرحمن بموضعه<sup>(٦)</sup>.

أما ابن اعثم فيأخذ برواية إرسال عبد الرحمن بن محمد إلى هميان السدوسي الذي أعلن تمرده على الحجاج فحاربه عبد الرحمن حتى هزمه من فارس ودخل كرمان وقتل عامة أصحابه ثم بعث برؤوسهم إلى الحجاج<sup>(٧)</sup>.

أن الحجاج رجل غير متدين مما أثار حفيظة المتدينين ضده وهكذا بدأت الثورة. وفيما عدا (ابن كثير عماد الدين بن إسماعيل ت ٧٧٤هـ - ١٣٧٢ م) في البداية والنهاية في التاريخ، فإن المصادر المتأخرة لا تضيف إلى معلوماتنا عن هذه الثورة شيئاً جديداً وكل ما تفعله هو إعادة الروايات المتوفرة في المصادر المبكرة، أما ابن كثير فهو المصدر الوحيد الذي يذكر رواية (محمد بن عمر الواقدي ت ٢٠٧هـ - ٨٨٢ م) التي تحتوي على بعض المعلومات الجديدة المبعثرة هنا وهناك، وبغض النظر عن حقيقة رواية الواقدي هذه التي تخلط بين معركة دير الجماجم ومعركة مسكن فإنها مع ذلك تستحق الأخذ بنظر الاعتبار<sup>(٨)</sup>.

وهناك تقويمان لهذه الثورة هما:

❖ **التقويم الأول:** يعطي سنة (٨١ هـ - ٧٠٠ م) بداية لها وسنة (٨٢ هـ - ٧٠١ م) لمعارك البصرة والكوفة ومسكن وسنة (٨٣ هـ - ٧٠٢ م) لمعارك سجستان وخراسان.

❖ **التقويم الثاني:** يعطي سنة (٨٢ هـ - ٧٠١ م) بداية لها وسنة (٨٣ هـ - ٧٠٢ م) لمعارك البصرة والكوفة ومسكن، وسنة (٨٤ هـ - ٧٠٣ م) لمعركة سجستان وخراسان. هذا وإن كلا التقويمين ليسا دقيقين بشأن السنة التي مات فيها ابن الأشعث عدا إنهما يذكران إنها كانت أما سنة (٨٤ هـ - ٧٠٣ م) أو (٨٥ هـ - ٧٠٤ م). وقد درس المؤرخ الألماني (يوليوس فلهوزن ١٨٤٤ - ١٩١٨) هذه المسألة بعمق على ما يبدو أنه كان محقاً في أخذه بالتقويم الأول<sup>(٩)</sup>.

وصل عبد الرحمن إلى سجستان سنة (٨٠ هـ / ٦٩٩ م) بعد الهزيمة التي لحقت بهاني بن شريح الحارثي وموته هناك مع ما لحق به، وعقد الصلح بين عبيد الله بن أبي بكرة الثقفي مع ملك رتبيل، دعا الحجاج بن يوسف قائده عبد الرحمن بن محمد فعقد له عقداً وضم إليه جيشاً وقال له: قد علمت ما نزل بهاني بن شريح والمسلمين بأرض الكفار وما كان من هذا المناقش عبيد الله بن أبي بكرة وما كان من صلحه مع رتبيل، فسرّ ولا تعرج على شيء حتى تدخل أرض الدوّار - ناحية بسجستان - من بلاد الترك وكابل، ثم فرق الجنود بها وابلغ فيها الغاية لا بعدها. ثم مكنه الحجاج من الأموال وضم إليه الأشراف من القبائل الكوفية والبصرية<sup>(١٠)</sup>.

يذكر الطبري وابن الأثير عن الجيش الذي جهزه الحجاج لابن الأشعث فقالوا: فجعل عشرين ألفاً من أهل الكوفة،

(١) الخلافة الأموية ص ٢٤٥

(٢) تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ص ١٩٤

(٣) الفتوح ج ٧ ص ٧٧

(٤) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٥١، الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٤٥٤

(٥) الفتوح ج ٧ ص ٧٧

(٦) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٥١، الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٤٥٥

(٧) الفتوح ج ٧ ص ٧٨

هذه فكان حذراً جداً من هذه الناحية، فعندما أقام الحاميات في كل مدينة أو قلعة احتلها وآمن خطوط مواصلاته بتنظيم البريد هذه بين المناطق وبعد أن سيطر على جزء كبير من البلاد وحصل على غنائم ثمينة من بقر وغنم رجع ابن الأشعث إلى مدينة بست مؤجلاً العمليات العسكرية إلى الربيع من سنة ٨١ هجرية إذ وجد من الأصلح له وللمسلمين أن يترك الجند يعتادون على مثل هذه المناطق الجبلية وشتائها البارد وطرقها الوعرة وممراتها الضيقة. ثم كتب إلى الحجاج يعرفه بما فتح ذلك وإن رأيه أن يتركوا التوغل في بلاد رتبيل حتى يعرفوا طريقها ويجبوا خراجها<sup>(٤)</sup>.

ولكن الحجاج كعادته دوماً متسرع، وناقد الصبر فكتب له سلسلة من الرسائل المهيبة والقاسية يأمره بأن يستمر في تقدمه داخل بلاد رتبيل من دون تأخير وإن يقاتله حتى الموت وإلا فسوف يعزله عن القيادة ويجعلها إلى أحد إخوته وبذلك يجعله مجرد جندي عادي في هذا الجيش<sup>(٥)</sup>.

كان الحجاج قد كتب إلى ابن الأشعث قائلاً له: إن كتابك كتاب امرئ يحب الهدنة ويستريح إلى المودعة، قد صانع عدواً قليلاً ذليلاً، قد أصابوا من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسناً وغنائمهم عظيماً وإنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندي وحدتي لسخي النفس بمن أصيب من المسلمين فأمرض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم والهدم لحصونهم وقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم، ثم اردفه كتاباً آخر بنحو ذلك جاء فيه: أما بعد فمر من قبلك من المسلمين فليحرثوا وليقيموا بها فإنها دارهم حتى يفتحها الله عليهم. ثم كتب إليه كتاباً ثالثاً جاء فيه: إن مضيت لما أمرتك وإلا أخوك إسحاق بن محمد أمير الناس<sup>(٦)</sup>.

فدعا عبد الرحمن بن محمد الناس وقال لهم: إني لكم ناصح محب ولكم في كل ما يحيط بكم نفعه ناظر... وأنا رجل منكم امضي إذا مضيتم وآتي إذا أبييتم. فقال الناس له: بل نأبى على عدو الله ولا نسمع له ولا نطيع. وذكر ابن اعثم: إن ابن الأشعث قبل أن يعقد مثل هذا الاجتماع مع رؤوساء اتباعه زور كتاباً على لسان الحجاج يأمره فيها بعزل بعض الرؤوساء من مناصبهم وقتل بعضهم الآخر في محاولة منه لزيادة كرههم وحنقهم على الحجاج، وطوى كتابه وختمه ثم تركه حتى جف ختمه ثم جعل يرسل إلى رجل بعد رجل من أجلاء عسكره فيخلو به فيقول: يا هذا هل أذنبت إلى الحجاج ذنباً؟ فيقول الرجل: لا والله أيها الأمير ما اعرف لي ذنباً إلى الحجاج، فيقول

أما المستشرق الروسي (نيكيتا ايليسيف) فيرى: إن ثورة ابن الأشعث تعود في الأصل إلى حقد عميق متبادل بينه وبين الحجاج، ويعتقد أنه كان طبيعياً أن ينشب النزاع والصراع بين حاكم من دهماء الناس وعامتهم - يقصد الحجاج - وبين نبيل من وسط كندة وضع تحت أوامر الحاكم المذكور، ويبدو أن لا مجال للبحث عن أسباب فتنة ما في العواطف والمشاعر الشخصية، لأن الثورة تطورت إلى مجابهة بين موالي البصرة والكوفة وبين عرب مسلمين، بل وفتحت المجال أيضاً للعراقيين إلى أن يحاولوا مجدداً كسر نير السوريين متذرعين بالنقمة العامة ضد الأمويين - أئمة الضلال - وحتى يتجنب الحجاج الاحتكاكات قام ببناء مدينة واسط وذلك عام (٨٣-٨٦ هـ / ٧٠٣-٧٠٥ م) وهي مدينة في منتصف الطريق بين البصرة والكوفة<sup>(٧)</sup>.

أما المؤرخ الألماني كارل بروكلمان (١٨٦٨-١٩٥٦) وهو من الرعيل الأول من المستشرقين الألمان الذين عايشوا القرنين التاسع عشر والعشرين<sup>(٨)</sup> فنراه يقول: وما كاد الحجاج يقضي على الثوار في مقاطعة كرمان - يقصد تمرد هميان السدوسي - وكانت تحكم من العراق حتى سير جيشاً مجهزاً تجهيزاً جيداً لإخضاع بلاد سجستان المجاورة التي كان يحكمها في ذلك الوقت أمير من أصل تركي وعهد الحجاج بقيادة هذا الجيش جيش الطواويس إلى عبد الرحمن بن محمد الذي يرجع نسبه إلى بيت من كندة الملكي القديم<sup>(٩)</sup>.

أي أن بروكلمان يأخذ برواية ابن اعثم والقول الثاني للطبري وابن الأثير. وعندما وصل عبد الرحمن بن محمد إلى سجستان خطب في الناس هناك داعياً للمقاتلة والانضمام إلى جيشه وقد تم له ذلك، وكما انضم إليه أيضاً جيش من طبرستان تحت قيادة أخويه القاسم والصباح، وعندما سمع رتبيل أن مثل هذا الجيش الكبير قد أرسل ضده كتب إلى ابن الأشعث يعتذر له عن المصير الذي آل إليه جيش ابن أبي بكرة الثقفي وعرض عليه خطة لتسوية سلمية بين الطرفين ولكن ابن الأشعث لم يعر هذا العرض من جانب رتبيل أي اهتمام واستمر زحفه نحوه. وقد أمل رتبيل أن يوقع بهذا الجيش بالطريقة نفسها التي أوقع فيها جيش ابن أبي بكرة فبدأ جيش رتبيل ينسحب أمامه مغرباً إياه بالتوغل بعيداً في بلاده الجبلية الوعرة، ولكن ابن الأشعث كان على علم بإستراتيجية رتبيل

(١) الشرق الإسلامي في العصر الوسيط ص ١٥٦

(٢) لمزيد من التفاصيل انظر بحث الدكتور فكتور الكك، من أعمال الاستشراف الألماني، مجلة الفيصل، الرياض، العدد ١٠٣، تشرين الأول،

ص ٤٢، لسنة ١٩٨٥

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ١٤٥

(٤) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٥٢

(٥) الخلافة الأموية ص ٢٤٧

(٦) الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٤٦١

ونجد أن ثورة ابن الأشعث هي إحدى المناسبات النادرة التي نجد فيها القبائل العربية الشمالية والجنوبية تقف سوية متضامنة ضد عدو مشترك وإنها كذلك للمرة الأولى نجد فيها المضربين يقبلون أن يتبعوا قائداً يمانياً والمناسبة التي ظهر فيها أن عصبيتهم لمصرهم العراق كانت أقوى من عصبيتهم لقبائلهم.

### أسباب الثورة

(١) الأمويون يسوقون العراقيين دوماً للقتال: لقد دفع الأمويون بالعراقيين إلى مجاهيل البلاد الفارسية والتركستانية وكابل وزابل وهراة السحيقة البعيدة لفتحها، كي يأمّنوا شرهم وقلقلهم في بلادهم طالما التحقوا بالزعماء النافخين في بوق الانفصال عن المركزية الأموية والداعين إلى نصره آل البيت والمطالبة بحقهم في الخلافة، وقد صرح الحجاج بهذه الحقيقة علناً قائلاً لهم: إنّ الدواء الناجح لقتل جرثومة الفوضى والثورة هو إرسالهم للفتح والغزو فتستثمر الدولة قواهم الكامنة في الأعمال الصالحة بدلاً من تحملها ما لا قابلية لها. لقد اتبع الحجاج هذه السياسة فجهز من العراقيين جيشاً قوياً يبلغ عشرين ألفاً لفتح بلاد كابل وزابل ومناجزة الأتراك وقد اسند قيادة هذا الجيش لعبد الرحمن بن محمد فسار إلى بلاد الترك وجعل يفتح منها ويضمها إليه، وبيعت إليها عماله ويضع الأرصاء على الشعاب والمسالح في الأمكنة المختلفة، وكان من رأيه أن لا يتقدم ويوغل في الفتح حتى يعرف المسلمون إليها ويجترئون على طردها، ثم يمعن فيها بعد ذلك غزواً ويضربها ضربة قاضية فلا يجازف بأرواح العراقيين ولا يرمي بهم في التهلكة ولا يسوقهم إلى الموت سوق الغنم إلى المقصلة، فغضب الحجاج لهذه الخطة التي سلكها ابن الأشعث. وقد مرت علينا الرسائل التي أرسلها الحجاج لابن الأشعث وما احتوت من كلام مهين<sup>(٢)</sup>.

(٢) الولاة الأمويون في العراق وقسوتهم: أسند الأمويون الكوفة والبصرة إلى رجال قساة لا يعرفون الرحمة ولا تتخلل الشفقة إلى قلوبهم فأتبعوا سياسة الشدة بحذاقها وراحوا يتهمون الناس على الظنة فجردوا السيف على الرؤوس واعمّلوا السوط على الظهور وجعلوا السجن مقبرة للزعماء المعارضين ولو تصفحنا تاريخ الولاة الأمويين في العراق أمثال زياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وغيرهم لتحقيقنا أن ملك بني أمية لم يرقم إلا على سيوفهم ولم تتوطد أركانه إلا على أسنتهم فمنعوا الشعب أن ينتقد سياسة الحكومة أو يندد بأعمال رجالها أو يسدد سهام غضبه إلى مبادئها. وكانوا يحرصون على ذلك حرصاً

له ويحك هذا كتابه فيك يأمرني بقتلك، ولا والله ما كنت أقتل مثلك فأكتبكم عليّ هذا، فلم يزل ابن الأشعث كذلك حتى غلظ قلوب الأشراف على الحجاج<sup>(١)</sup>.

وكان أول من أعلن خلع الحجاج هو أبو الطفيل عامر بن وائلة الكناني الذي قال: إني أشهدكم إني أول خالع. كما أن عبد المؤمن بن شيبث الربعي الذي قال: بايعوا أميركم وانصرفوا إلى عدوكم الحجاج فأنفوه عن بلادكم. فقال ابن الأشعث لجيشه: ألا ترون أنه يكتب إليّ يأمرني بالدخول إلى بلاد رتبيل والإقدام عليه في بلده ورتبيل في وقته هذا على أكثر من مائة ألف، والله ما يريد بهذا إلا أن تهلكوا كما هلك جيش ابن أبي بكر، فإنه قد سار فيكم بما قد علمتم وشردكم في البلاد وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره وأنا قد عزمتم على خلع خلع صاحبه عبد الملك بن مروان فماذا ترون؟ فقالوا: هذا إليك أيها الأمير وأمورنا تبع لأمرك.

فقام ابن الأشعث بتعيين عياض بن هميان البكري السدوسي على بستان، وعبد الله بن عامر التميمي الدارمي على زرنج، ثم بعث إلى رتبيل فصالحه وعقد معه صلحاً تضمن الشروط الآتية:

١. إذا انتصر ابن الأشعث فسيمنح رتبيل اعفاءً من دفع الجزية طالما بقي في السلطة.

٢. إذا حدث العكس فإن رتبيل سيوفر ملجأ لابن الأشعث لديه.

كانت سياسة ابن الأشعث في فتح البلاد تقوم على اصطناع الروية وعدم التفريط بأرواح الجند فعند ذلك الحجاج ضعفاً وتراخياً وأمره بالإسراع في الفتح والإيغال في أرض الأعداء. يقول بروكلمان في رأيه بآبن الأشعث حول الفتوح: لقد كان الصلح الذي عقد بين ابن الأشعث والملك رتبيل في صالح الأخير إذ حتى في حالة اندحار ابن الأشعث فإن الحرب مع الحجاج ستترك رتبيل دونما أي إزعاج فترة من الوقت كما أنها ستترك الحجاج وحكومة العراق منهكة وضعيفة.

وفي أثناء زحف ابن الأشعث نحو العراق لقتال الحجاج كان مع ابن الأشعث الشاعر أعشى همدان الذي انشد تسعة أبيات من الشعر احتفاءً بالمناسبة. إن قصيدة أعشى همدان هذه مهمة لأنها تكشف عن الجانب الديني الكامن خلف هذه الثورة إذ أن الحجاج كان قد وصف بأنه شخص غير متدين وقد وصفه الأعشى أنه ولي للشيطان كما تظهر بوضوح بأن مضر واليمن - همدان ومذحج وقحطان - تحالفوا فيما بينهم ضد الحجاج وقبيلة ثقيف.



وفد على النبي (ﷺ) مع أخيه هاني بن عدي فيمن وفد عليه من قومهما ثم شارك في حرب الشام وأحسن فيها البلاء وأنه كان في مقدمة الجيش الذي دخل مرج عذراء قريباً من دمشق وهو المكان الذي قُتل ودفن فيه، ثم تحول إلى العراق فشارك في غزو بلاد فارس وأبلى أحسن البلاء في نهاوند ورابط في الكوفة مع المرابطين بعد الفتح وكان رجلاً حراً صادق الدين، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويرضى عن السلطان إن أحسن ويسخط عليه إن أساء. ولكنه لم يخلع ابداً من طاعة، وكان ينكر اشد الإنكار سنة بني أمية في شتم علي وأصحابه على المنابر ولم يكن يخفي إنكاره، وألقى زياد بن أبيه القبض على حجر وسجنه مع ثلاثة عشر من أصحابه ثم أرسلهم إلى معاوية فأمر معاوية أن يُحبسوا بمرج عذراء وهي قرية بضواحي الشام، فردّه معاوية إلى زياد وأمره أن يقتله شرّاً قتله بعد أن رفض حجر بن عدي البراءة من الإمام علي (عليه السلام) فأمر به زياد بن أبيه فدفن حياً، وانتهت هذه المأساة المنكرة التي استباح زياد بن أبيه فيها أن يعاقب الناس على معارضة لا إثم فيها.

قال المؤرخ المسعودي في مروج الذهب: تأمر الحجاج على الناس عشرين سنة وأحصى من قتله صبراً سوى من قتل في عساكره وحروبه، فوجد مائة وعشرين ألفاً، ومات الحجاج وفي حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة منهن ستة عشر ألف مجردة عارية من الثياب وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر في الشتاء وكان له غير ذلك من العذاب<sup>(٤)</sup>.

وعن تاريخ ابن الجوزي: إن سجن الحجاج كان مجرد حائط يحوط السجناء ويمنعهم من الخروج ولا سقف له فإذا أوى المسجونون إلى الجدران يستظلون بها من حرّ الشمس رمتهم الحرس بالحجارة وكان يطعمهم خبز الشعير مخلوطاً بالملح والرماد وكان لا يُلبس الرجل في سجنه إلا يسيراً حتى يسود ويصير كأنه زنجي، وقد حبس فيه غلام فجاءت أمه بعد أيام تتفقده فلما قدّم إليها انكرته، وقالت: هذا ليس ولدي هذا زنجي! وحين تأكدت أنه ولدها شهقت وماتت في مكانها<sup>(٥)</sup>.

(٣) ابن الأشعث طموح يسعى للاستقلال وقد ملك بلاداً واسعة ملأ يديه منها غنائم عظيمة.

(٤) إخلاص الولاة الأمويين في العراق وتفانيهم في تنفيذ سياسة البطش والقوة.

(٤) مروج الذهب ج ٣ ص ١٢٩

(٥) الفكر السياسي الشيعي، ص ٢٩٤، الشيعة والحاكمون، ص ٩٤

شديداً حتى أنهم اجبروا مراراً على ارتكاب الفظائع في سبيل تنفيذ هذه السياسة، وقطعاً لألسنة المدبرة، وقد سادت سياسة القسوة في الحجاز فحرموا على الحجازيين إيواء العراقيين المعارضين للحكومة الأموية في بلادهم وهددوا من يخالف هذه القوانين بالإعدام<sup>(١)</sup>.

وقد بلغت قسوة الولاة الأمويين أنهم خنقوا الحرية الكلامية والسياسية خنقاً لا حياة بعده، بل نجد أن أهل المدينة المنورة قد اجتمعوا صغيروهم وكبرهم بمسجد رسول الله (ﷺ) وضجوا إلى الله ولاذوا بغيره (ﷺ) ثلاثة أيام وذلك لأنهم سمعوا أن زياد بن أبيه قد مات!! وذلك في شهر رمضان من سنة (٥٣هـ / ٦٧٢ م) بالكوفة فبدلاً من أن يفرحوا نراهم قد لاذوا بقبر النبي (ﷺ) لعلمهم بما هو عليه من الظلم والتعسف<sup>(٢)</sup>.

وتكشف الخطاب التي ألقى على الناس مدى هذه السياسة التعسفية التي اتبعتها الولاة الأمويون فنجد بسر بن ارطاة الفهري الذي أقام بالمدينة المنورة أياماً وذلك في زمان معاوية فخطب بالناس قائلاً: لاعودن عليكم بالهلاك وقطع النسل...

وهذا زياد بن أبيه الذي القى بالبصرة خطبة وتعرف بالخطبة البتراء ومما جاء فيها: ... فحرام على زياد الطعام والشراب أو أسوي مدينتكم بالأرض هدماً وإحراقاً، فأني رأيت الأمر لا يصلح إلا بما يصلح عليه أوله لين في غير ضعف وشدة في غير عنف واقسم بالله لأخذن الولي بالولي، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح بالسقيم حتى يلقي الرجل منكم أخاه فيقول له: أنج سعد فقد هلك سعيد<sup>(٣)</sup>.

وقد قتل زياد بن أبيه منهم فقهاء الشيعة أمثال (جويرية بن مسهر ورشيد الهجري وصيفي بن فسيل وحجر بن عدي وعمرو بن الحمق الخزاعي) وأمثالهم من القراء وحملة الحديث، ولما أراد أن يقتل (سعيد بن سرح) استجار بالإمام الحسن (عليه السلام) فهدم داره وأخذ أمواله وحبس أخاه وأمراته.

أما رشيد الهجري فيعد من طليعة رجال الإسلام بعث خلفه زياد بن أبيه وقطع يديه ورجليه ولسانه وصلبه خنقاً من عنقه.

أما جويرية بن مسهر فقد كان من خلص أصحاب الإمام علي (عليه السلام) استدعاه زياد فأمر بقطع يديه ورجليه ثم صلبه على جذع قصير أما حجر بن عدي فكان من طليعة صحابة الرسول (ﷺ) في فضله وعمله وقداسته وزهده وعبادته.

قال طه حسين في حق حجر بن عدي: كان حجر من شيعة علي (عليه السلام) المخلصين له الحب ومن صالحى المسلمين،

(١) الدولة الأموية في الشام، ص ١٦٣

(٢) الفتوح ج ٤، ص ٣٠٢

(٣) الفتوح ج ٤ ص ٣٠٢

الله وسنة نبيه وخلع أئمة الضلال وجهاد المحليين وسموا ابن الأشعث المنصور عبد الرحمن حسب تعبير فان فلوتن<sup>(٤)</sup>.

### معركة تُستر (١٠) / ذي الحجة / ٨١ هـ الموافق لـ ٢٥ / كانون الثاني / ٧٠١ م

ولما وصلت الأخبار إلى الحجاج بأن ابن الأشعث قد خلعه فكتب إلى عبد الملك يسأله أن يعجل بعثة الجنود إليه، وسار الحجاج حتى وصل البصرة، وتذكر المصادر أن المهلب بن أبي صفرة كتب إلى ابن الأشعث كتاباً حذره فيه من الحجاج ومن جيوشه<sup>(٥)</sup>.

كما تذكر المصادر أن المهلب بن أبي صفرة كتب إلى الحجاج وقد حذره من جند ابن الأشعث وأتهم كالسيل ليس يردهم شيء. فلما قرأ الحجاج كتابه سبه وقال: ما لي نظر وإنما النظر لابن عمه يعني عبد الرحمن. وفي هذه الأثناء وصل كتاب الحجاج الذي بعثه إلى عبد الملك الذي أصيب بالذعر والرعب من هذا الخبر فأرسل الإمدادات تبعاً وبصورة مستمرة فكانوا يصلون إلى الحجاج على البريد من مائة ومن خمسين وأكثر، وكتب الحجاج تتصل بعبد الملك كل يوم بخبر ابن الأشعث، فسار الحجاج من البصرة ليلتقي ابن الأشعث فنزل مدينة تُستر وذلك في (١٠) / ذي الحجة / ٨١ هـ - ٢٥ / كانون الثاني / ٧٠١ م) فحدث أول صدام عسكري بين الطرفين فهزم جيش الحجاج هزيمة منكرة فرجع هو وجيشه إلى البصرة<sup>(٦)</sup>.

ثم أمر الحجاج بالإتقال بالأموال فوضعت بالسفن ووقف ينتظر من أمر أصحابه، وأنه كذلك إذ اتاه الخبر بأن أصحابه الثمانية آلاف قد قتلوا بأجمعهم وما قلت واحد منهم، فجلس الحجاج في سفينته ومرّ في جوف الليل منهزماً حتى دخل البصرة وهو بأشد حالة تكون. حتى أن عبد الله بن عباس كان قد وصف معركة تُستر بقوله: كان لأهل العراق على أهل الشام النصر والظفر في ثلاثة مواطن، قتلوا منهم ستة وثمانين ألفاً منها:

❖ **وقعة بابل:** وهي قرية كبيرة بظاهر حلب، يوم يزيد بن انس الاسدي حين وجه المختار، فقتل من أهل الشام ثمانية آلاف.

❖ **وقعة الخازر:** مع إبراهيم بن مالك الأشتر الذي قتل عبيد الله بن زياد، قُتل أكثر من سبعين ألفاً.

❖ **وقعة تُستر:** قتل منهم عبد الرحمن بن محمد ثمانية آلاف مقاتل.

فعندها دعا الحجاج بكتاب المهلب بن أبي صفرة، ثم قال: لله أبوه، أي صاحب حرب هو، أشار عليّ بالرأي ولكننا لم نقبل.

(٤) السيطرة العربية والتشيع والمعتقدات المهدية في ظل خلافة بني أمية، ١٠٧

(٥) الفتوح ج ٧ ص ٨٠

(٦) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٥٨، الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٤٦٥

(٥) البغض الذي يكنه ابن الأشعث للحجاج وسوء العلاقة الشخصية بينهما - وقد مرّ علينا ذلك -.

(٦) قوانين الحجاج الصارمة وممارساته القمعية ضدهم.

(٧) الحقد على الحجاج لظلمه أهل العراق بني جلدتهم وأهانتهم وسوء معاملته قواده وجنده حتى أنهم سموه فرعون العراق.

(٨) عصبية الحجاج المتطرفة ضد الموالي وشدة تمسكه بانتمائه القيسي.

(٩) القسوة التي استخدمها الحجاج في مراسلاته لابن الأشعث بشأن رتبيل واتهامه له بالضعف والجبن والعجز.

كانت فترة حكم الحجاج للعراق هي أسوأ فترات الحكم الأموي بالنسبة للناس والموالي فقد كرهه الناس وحقدوا عليه وعلى عبد الملك بن مروان وبغضوا الدولة الأموية فعادوا إلى ثورتهم على الحكم الأموي ولعبت عوامل عدة دورها في إثارة غضبهم وحقنهم منها:

أ- قسوة الحجاج في معاملة العراقيين وميله إلى سفك دمائهم وقد أوصاه عبد الملك بسفك الدماء فقال له: سرّ إلى العراقيين واحتل لقتلهم، فإنّه قد بلغني عنهم ما أكره. وكان عبد الملك يعرف أن الكوفة أنها مركز الموالي فخصها بتوصية الحجاج باضطهادها وأهلها فقال له: يا حجاج، فقد وليتك العراقيين صدقة، فإذا قدمت الكوفة فطأها وطأة يتضائل منها أهل البصرة<sup>(١)</sup>.

ولم تسلم البصرة من قسوة الحجاج فتوجه إلى مسجدها في يومه الأول ومعه ألفي جندي من أهل الشام فانقضوا على أهل البصرة وقتلوا أكثر من سبعين ألفاً حتى سالت الدماء ووصلت إلى طرقها<sup>(٢)</sup>.

ب- لثورة العراقيين على الحجاج هو كراهيته واضطهاده لهم وسيره فيهم سيرة لم ترضيهم، لقد كان الموالي يميلون إلى الخوارج وحارب بعضهم في صفوفهم لثورتهم على الحكم الأموي ولا عجب أن كرهت الموالي حكم الحجاج وخاصة طبقة الدهاقين فلما قدم الحجاج العراق ثقل أمره على أهل البلاد فأجتمع الدهاقون إلى جميل بن بصرى وكان حازماً مقدماً فشكوا إليه ما يتخوفون من شر الحجاج<sup>(٣)</sup>.

كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت العراقيين ينضمون إلى ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج وبايعوا ابن الأشعث على كتاب

(١) تاريخ يعقوبي ج ٢ ص ١٩١

(٢) الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٣١

(٣) تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ص ١٧١

ربيع الأول / ٨٢ هـ) وخندق الجانبان على أنفسهما واستمروا في مناوشات غير حاسمة دامت شهرين، وكلما طال أمد الحرب بين الحجاج وابن الأشعث كلما زادت مخاوف عبد الملك ولذلك وبناءً على نصيحة بعض القرشيين وبعض الوجوه بعث عبد الملك ابنه عبد الله وأخاه محمد بن مروان وأمرهما أن يعرضا على أهل العراق شروطاً يتم على أساسها استسلامهم فإن رفضوها فإن هذا الجيش - كان عبد الملك قد بعث معهما سبعين ألفاً من الجند إلى الحجاج - سيقا تل ضدهم وكانت شروط عبد الملك هي:

أ- نزع الحجاج عن العراق.

ب- أن يجري عليهم أعطياتهم كما تجرى على أهل الشام.

ت- أن ينزل ابن الأشعث أي بلد ويكون والياً عليه مادام عبد الملك والياً ومادام ابن الأشعث حياً<sup>(٣)</sup>.

واجتمع أهل العراق مع ابن الأشعث الذي عبثاً حاول إقناعهم بانتهاز الفرصة مذكراً إياهم أنهم على النصف من العدد فرفضوها وجددوا خلعتهم لعبد الملك بن مروان، وكانوا معتمدين في رفضهم هذا على أن الحجاج وجيوشه من أهل الشام كانوا يعانون من الضنك والمجاعة والقلة والذلة<sup>(٤)</sup>.

ولكنهم أخطأوا في استنتاجهم هذا فعلى الرغم من كل الصعوبات التي كانت تواجههم وقف أهل الشام بثبات وهكذا خسر أهل العراق فرصتهم في التخلص من الحجاج وحكمه القاسي والحصول على زيادة في عطياتهم. وهذا ناشئ من عدم الثقة بالحكام بالأمويين.

### معركة دير الجماجم أو حرب المائة يوم وهزيمة عبد الرحمن الثلاثاء (٢ / ربيع الأول / ٨٣ هـ)

بعد أن رفض أصحاب ابن الأشعث أمان عبد الملك بن مروان وعزل الحجاج بن يوسف عن العراق، فترك ابن الأشعث جيشه بالكوفة وعسكر في دير الجماجم<sup>(٥)</sup>، فقام ابن الأشعث بتقسيم جيشه وكان كآلاتي:

(٣) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٦٢

(٤) الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٤٧١

(٥) من الأماكن المشهورة الواقعة في الكوفة هو دير الجماجم، وقد وردت عدة روايات في اشتقاق اسمه فيروي أبو عبيدة الله أنه سمي كذلك من أقذاح من خشب كانت تعمل به، ويقال أنه سمي بهذا الاسم لكثرة الجماجم التي دفت فيه اثر المعركة، ويقع هذا الدير بظاهر الكوفة على طريق البر الذي يسلك إلى البصرة ويقع على سبعة فراسخ من الكوفة على مقربة من دير قرة ويقع شمالي الكوفة. لمزيد من التفاصيل انظر: بحث الدكتور صالح احمد العلي: منطقة الكوفة دراسة طبوغرافية مستندة إلى المصادر الأدبية، مجلة حولية الكوفة، العدد ١، ص ٥٨، لسنة ٢٠١١

وفي هذه الأثناء دخل ابن الأشعث البصرة من دون مقاومة بل على العكس قوبل بحماس شديد وخاصة من قبل القراء وكهولها وجميع أهلها وكان دخول ابن الأشعث في آخر شهر ذي الحجة الحرام من سنة (٨١ هجرية). وقد خندق ابن الأشعث على نفسه وأقام التحصينات الدفاعية تحسباً وبعد شهر من المناوشات حدثت معركة ثانية بين الطرفين.

### معركة الزاوية ودخول عبد الرحمن الكوفة في (٢٨ / محرم الحرام / ٨٢ هـ - آذار / ٧٠١ م)

حدثت هذه المعركة في منطقة يقال لها الزاوية. وقد قُتل عدد كبير من القراء الذين هم مع ابن الأشعث وانتصر الحجاج في النهاية وذلك بفضل جهود قائده الشامي سفيان بن الأبرد الكلبلي. وبعد هذه الهزيمة في الزاوية ترك ابن الأشعث البصرة وتوجه إلى الكوفة ومعه جنوده الكوفيون إضافة إلى بعض فرسان أهل البصرة تاركاً وراءه عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث، الذي استمر في القتال لفترة قصيرة فقط وذلك لان الغالبية من أهل البصرة قبلوا الأمان الذي أعلنه الحجاج وفتحوا له الطريق لدخول المدينة ونتيجة لذلك اضطر عبد الرحمن بن عباس ومجموعة صغيرة من اتباعه إلى ترك البصرة والانضمام إلى قائدهم ابن الأشعث بالكوفة. وقد أخذ ابن الأشعث بيت مال الحجاج وأخذ عامل الحجاج على الكوفة وهو مطر بن ناجية أو عبد الرحمن بن عبد الرحمن الحضرمي كما يسميه الطبري، فهم ابن الأشعث بقتله، فقال له: أيها الأمير، فإني من شيعتك، فبقاه وأمره بشتم الحجاج وعبد الملك ولعنهم، ثم حرض على قتال أهل الشام<sup>(١)</sup>.

وقد قتل الحجاج يوم الزاوية من جند ابن الأشعث أحد عشر ألفاً بعد أن خدعهم بالأمان وأمر منادياً فندى: لا أمان لفلان بن فلان فسمى رجالاً، فقال العامة: قد آمن الناس فحضرنا عنده فأمر بهم فقتلوا<sup>(٢)</sup>.

وسمع الحجاج أن ابن الأشعث قد أخذ الكوفة واحتوى على بيت المال فضاقت عليه الأرض بما رحبت ولم يدر ما يصنع، غير أنه جمع أصحابه وأعطاهم الأرزاق وأمدتهم بالاستعداد ثم دعا بالحكم بن أيوب بن أبي عقيل وهو ختن الحجاج على أخته زينب، فأستخلفه على البصرة ثم سار يريد الكوفة، وتقدم الحجاج عبر الصحراء إلى الكوفة وبسبب ملاحقة عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة ومجموعة من الفرسان اضطر الحجاج إلى أن يعسكر في مكان يقال له دير قرة، وترك ابن الأشعث وعسكر في دير الجماجم وذلك في (٢ /

(١) الفتوح ج ٧ ص ٩٠

(٢) الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٤٦٩

احتدم القتال وحملت كتائب الحجاج الثلاث على القراء من أصحاب ابن الأشعث وكان قائدهم جبلة بن زحر، وعندما شاهد جبلة كتائب الحجاج الثلاث تقاتل القراء صاح قائلاً: يا عبد الرحمن بن أبي ليلة، يا معشر القراء، إنَّ الفرار ليس بأحد من الناس بأقبح منه بكم، إنِّي سمعتُ علي بن أبي طالب (رفع الله درجته في الصالحين وآتاه ثواب الصادقين والشهداء) يقول يوم لقينا أهل الشام: أيها المؤمنون مَنْ رأى عدواناً يعمل به ومنكراً يُدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرئ، و مَنْ أنكره بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه، و مَنْ أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الظالمين هي السفلى، فذلك الذي أصاب سبيل الهدى ونور في قلبه باليقين، قاتلوا هؤلاء المحلّين المحدثين المبتدعين الذين جهلوا الحق فلا يعرفونه وعملوا بالعدوان فليس ينكرونه. وقال أبو البخترى الطائي: أيها الناس قاتلوهم على دينكم ودنياكم. وقال عامر الشعبي: أيها الناس قاتلوهم ولا يأخذكم حرَجٌ من قتالهم، والله ما أعلم على بسيط الأرض أعمل بظلم ولا أجور في حكم منهم.

وقال سعيد بن جبيرة: قاتلوهم ولا تأثموا من قتالهم بنية ويقين وعلى آثامهم، قاتلوهم على جورهم في الحكم وتجبرهم في الدين واستذلّاهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة. وقال جبلة لهم: إذا حملتم عليهم، فإحملوا حملة صادقة ولا تردّوا وجوهكم عنهم حتى تواقعوا صفهم. فضربوا الكتائب الثلاث حتى تقهقرت وفرقوهم عن مكانهم ثم رجعوا إلى مكانهم فوجدوا جبلة قتيلاً لا يدرون مَنْ قتله<sup>(٣)</sup>.

كان الذي قتل جبلة بن زحر هو الوليد بن نحيث الكلبي وجيء برأس جبلة إلى الحجاج الذي بشر أصحابه بذلك.

ولما رجع أصحاب جبلة ورأوه قتيلاً فتناعوه بينهم، فقال لهم أبو البخترى الطائي: لا يظهرون عليكم قتل جبلة إنما كان كرجل منكم اتته منيته فلم يكن ليتقدم يومه ولا ليتأخر عنه.

وظهرت الكآبة في وجوه القراء، فلما رأى أهل الشام ذلك نادوهم: يا أعداء الله قد هلكتم وقد قُتل طاغيتكم. فتقدم عليهم (بسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيباني) ففرحوا به وقالوا: تقدّم مقام جبلة، وكان قدومه من الري، فلما أتى عبد الرحمن بن محمد جعله على ربيعة وكان شجاعاً فقاتل يوماً فدخل عسكر الحجاج فأخذ ثلاثين امرأة فاطلق سراحهن، فجئن ودخلن معسكر الحجاج الذي قال: منعوا نساءهم، لو لم يردوهنّ لسبيت نساءهم إذا ظهرت عليهم<sup>(٤)</sup>.

(٣) الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٤٧٨

(٤) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٦٨

١. الحجاج بن حارثة الخثعمي - على الميمنة

٢. الأبرد بن قرة التميمي - على الميسرة

٣. عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة الهاشمي - على الخيل

٤. محمد بن سعد بن وقاص - على الرجالة

٥. عبد الله بن رزام الحارثي - على مجففته

٦. جبلة بن زحر بن قيس الجعفي - على القراء وفيهم (سعيد بن جبيرة، أنس بن مالك، أبو الشعثاء سليم بن أسود المحاربي، عامر الشعبي، أبو البخترى الطائي، عبد الرحمن بن أبي ليلة).

لعل من أسباب انضمام القراء والعلماء إلى ثورة ابن الأشعث هي:

أ- هم كسائر أهل العراق كانوا يكرهون محاولات الحجاج في تقوية سيطرة أهل الشام على العراق.

ب- شعروا أن مصالحهم المادية لم يعن بها الحجاج.

ت- لهم مظالم أخرى تميزت فم كقراء أي رجال دين اعتبروا الحجاج رجلاً قاسياً وغير متدين يأتي الدين ثانياً بالنسبة له.

ث- كما كانوا يؤيدون وبحاراة الموالي الذين كانوا بصورة خاصة قد عانوا من ظلم الحجاج وأجرائه القاسية اتجاههم<sup>(١)</sup>.

ج- تعدي الحجاج لحدود الدين وانتهاكه لحرماته.

ح- تجاوزاته على أصحاب رسول الله (ﷺ) في المدينة ومكة المكرمة.

خ- سوء معاملة الحجاج ونظرته للعلماء وسجنهم وقتلهم مما أثار في عزله عن الحجاز فقد تجاوز على (عبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود وسهل بن سعد وجابر بن عبد الله الأنصاري وغيرهم)<sup>(٢)</sup>.

أما الحجاج بن يوسف فقد قسم جيشه كآلاتي:

١. الجراح بن عبد الله الحكمي ومعه ثلاث كتائب لقتال كتيبة القراء.

٢. عبد الرحمن بن سليم الكابي - على الميمنة

٣. عمارة بن تميم اللخمي - على الميسرة

٤. سفيان بن الأبرد الكلبي - على الخيل

٥. عبد الله بن حبيب الحكمي - على الرجالة

(١) الخلافة الأموية ص ٢٥٨

(٢) الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ح ٢، ص ٦٤٧



تقدم سفيان الكلبي على ميسرة جيش عبد الرحمن بن محمد وكان الأبرد بن قرة التميمي الذي انهزم من غير قتال، فظن الناس أنه قد صولح على أن ينهزم الناس، فلما انهزم الأبرد تقوضت الصفوف وركب الناس بعضهم بعضاً<sup>(٢)</sup>.

وقد قُتل من كلا الجيشين سبعة عشر ألف إنسان ثم وضعوا السلاح وصعد عبد الرحمن بن محمد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إن الحرب سجال تهلك فيها أنفس الرجال، فإن رسول الله (ﷺ) ما ظفر يوماً قط حتى يُنال منه ومن أصحابه، فإن كان هذا الأمر في قريش فقد فقامت بيضة قريش، وإن يكن في غيركم من العرب فانا عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن معدي كرب أيها الناس أنكم لتعبرون آل مروان بأهمم الزرقاء ولا والله ما كان لهم نسب قط أشرف من الزرقاء وأنكم تعلمون أن مروان بن الحكم هو الطريد ابن طريد رسول الله (ﷺ)<sup>(٣)</sup>.

كان مروان بن الحكم ويكنى أبا عبد الملك وأبوه الحكم بن أبي العاص كان طريد رسول الله (ﷺ) وأسلم يوم فتح مكة ومات في خلافة عثمان بن عفان وكان سبب طرد رسول الله (ﷺ) إياه أنه كان يفشي سره، فلعنه وسيّره إلى بطن وج، فلم يزل طريداً في حياة رسول الله (ﷺ) وخلافة أبي بكر وعمر بن الخطاب ثم ادخله عثمان بن عفان وأعطاه مائة ألف درهم!!<sup>(٤)</sup>

وبينما عبد الرحمن على المنبر إذ نادى الحجاج بالقتال، فزحف القوم بعضهم إلى بعض، فجعلوا يقتتلون ويتناجزون وابن الأشعث واقف على المنبر وان السهام لتأتيه من بين يديه حتى تجوزه فما استتر منها بشيء ولا يتقيها لكنه نظر إلى أصحابه كيف يقتتلون، وبينما هو كذلك حتى أتاه عبد الله بن يزيد بن المفضل الأزدي فقال له: أنزل فإنني أخاف عليك أن تؤسر ولعلك إن انصرفت أن تجمع لهم جمعاً يهلككم به. فلم يزل كذلك حتى وقعت الهزيمة على أصحابه من خيل خرجت لهم في الكمين الذي نصبه جيش الحجاج، فمروا منهزمين لا يقف أحد على أحد حتى دخلوا الكوفة، فلما نظر ابن الأشعث ذلك نزل عن المنبر فاستوى على فرسه ثم وقف على حامية الناس في قريب من ألف رجل يحمل عليهم فيكشفهم ويدنو من الكوفة، فنظر إلى بيوتها ودخلها فخرج إليه أهله يبيكون، فأوصاهم بوصية وقال: لا تبكوا، رأيتم إن لم أترككم، كم عسيتم أن أبقى معكم حتى أموت، وإن أنا مت فإن الذي رزقكم الآن لا يموت وسيرزقكم بعد وفاتي كما رزقكم في حياتي ثم

وخرج عبد الرحمن بن عوف الرؤاسي أبو حميد فدعا إلى المبارزة فخرج إليه رجل من أهل الشام، فتضاربا بالسيف فقال كل واحد منهما: أنا الغلام الكلبي، فقال كل واحد منهم لصاحبه: مَنْ أَنْتَ؟ فإذا هما ابنا عم فلم يقتتلا.

وخرج عبد الله بن رزام الحارثي فطلب المبارزة فخرج إليه رجل من عسكر الحجاج فقتله، ثم فعل ذلك ثلاثة أيام متتالية، وفي اليوم الرابع خرج فطلب المبارزة، فقال الحجاج للجراح: أخرج إليه فخرج إليه فقال له عبد الله وكان صديقاً: ويحك يا جراح ما أخرجك؟ قال: بليت بك. قال: فهل لك في خير؟

قال الجراح: ما هو؟ قال عبد الله: أنهزم لك وترجع إلى الحجاج وقد أحسنت عنده وحمدك، وأما أنا فأحتمل مقالة الناس في انهزامي حباً لسلامتك، فإني لا أحب قتل مثلك من قومي. قال افعل. فحمل الجراح على عبد الله الحارثي وكان الحارثي قد قطعت لهاته فكان شديد العطش وكان معه غلام له معه ماء فكلما عطش سقاه الغلام. فقال الغلام لعبد الله الحارثي: يا سيدي إن الرجل يريد قتلك، فعطف عبد الله على الجراح فضربه بعمود على رأسه فخرّ صريعاً، وقال له: يا جراح بس ما جزييتني أردت بك العافية وأردت قتلي! انطلق فقد تركتك للقرابة والعشيرة<sup>(٥)</sup>.

وكان القراء ومنهم سعيد بن جبير وأبو البخثري يحملان على أهل الشام بعد قتل جبلة بن زحر حتى يخالطوهم وهما يقولان ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٥).

كانت مدة الحرب مائة يوم كما حددها المؤرخ الطبري الذي قال: وكان نزولهم يوم الثلاثاء (٢/ ربيع الأول/ ٨٣ هـ) وهزموا يوم الأربعاء (١٤/ جمادى الآخرة/ ٨٣ هـ).

أما ابن الأثير قال: كان نزولهم بدير الجماجم (٣/ ربيع الأول/ ٨٣ هـ) وهزموا في (١٤/ جمادى الآخرة/ ٨٣ هـ). وليس فرق بين المؤرخين سوى يوم واحد وهو يوم النزول بدير الجماجم.

### اليوم الأخير من المعركة الأربعاء (١٤/ جمادى الآخرة/ ٨٣ هـ) الموافق (٢٩/ تموز/ ٧٠٢ م)

وفي هذا اليوم اقتتل القوم قتالاً شديداً وذلك من صلاة المغرب إلى أن أصبحوا، واستظهر أصحاب عبد الرحمن على أصحاب الحجاج واستعلوا عليهم وهم آمنون أن يهزموا، فبينما هم كذلك إذ حمل عليهم سفيان بن الأبرد الكلبي وهو على ميمنة الحجاج بعد أن غير موقعه من قائد الخيل إلى الميمنة،

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٧٠

(٣) الفتوح ج ٧ ص ٩٣

(٤) المعارف ص ٣٥٣

(١) الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٤٨٠

٥) الجيش الذي أمده عبد الملك بن مروان للحجاج والمغريات التي بذلها لبعض زعماء قبائل الكوفة ولولاه لقضي على نفوذ الأمويين وعلى الحجاج وجيشه فذبّ التخاذل في صفوف العراقيين فكانت الهزيمة نقمة على الموالي وبدأت فترة جديدة من التعذيب والاضطهاد<sup>(٤)</sup>.

٦) تقوض صفوف جند ابن الأشعث وذلك بعد أن حمل عليهم سفيان بن الأبرد الكليبي الذي كان على ميمنة الحجاج وقد دنا من الأبرد بن قرة التميمي وهو على ميسرة ابن الأشعث الذي انهزم من غير قتال يذكر فظن الناس انه قد صولح على أن ينهزم بالناس، فلما انهزمت تقوضت صفوف جند ابن الأشعث وركب الناس بعضهم بعضاً<sup>(٥)</sup>، وعبثاً حاول بن الأشعث أن يجمعهم مرة أخرى فكانت الهزيمة.

### الحجاج ومقتل كميل بن زياد

وبعد أن انتهى الحجاج من أمر المعركة وتوجه إلى الكوفة واستقر فيها توجه الحجاج إلى قبيلة النخع وقال لهم: يا معشر النخع أخبروني عن كميل بن زياد من أي قبيلة هو منكم؟ فقالوا له: هو من بني الصهبان فقال الحجاج: لا والله لا خرجتكم من الدار أو تاتوني به وإلا ضربت أعناقكم. كان كميل بن زياد يعدّ من كبار علماء عصره ومن الحكماء المعدودين يعتبره الفلاسفة في عداد عظمائهم، وتعتبره المتصوفة من مشايخهم، كان عابداً زاهداً شريفاً في قومه مطاعاً وهو من فرسان العراق المشهورين وشجعانهم الذي لا يشق لهم غبار.

ولد كميل بن زياد في سنة (١٠هـ/ ٦٣١ م) وقيل (١٢هـ/ ٦٣٣ م)

وهو كميل بن زياد بن بهيل بن هيثم بن سعد بن مالك بن الحارث بن صهبان بن سعد بن مالك بن النخع بن عمرو بن ولة بن خالد بن مالك بن ادد النخعي اليماني. ينتمي إلى قبيلة النخع وهي قبيلة كبيرة من مذحج وقد أنجبت الكثير من العلماء وأفذاذ الرجال أمثال (علقمة بن قيس بن يزيد النخعي والأسود بن يزيد بن قيس، وإبراهيم بن يزيد النخعي، ومالك بن الحرث بن عبد يغوث المعروف بالأشتر) وغيرهم. كان كميل بن زياد من خلص أصحاب الإمام علي (عليه السلام) وصاحب سره وتلميذه المبرز من بين أصحابه وكان ثباتاً عالمياً كريماً عارفاً، اختاره الإمام علي (عليه السلام) من جملة مَنْ اختارهم للولاية فجعله والياً على هيت ومعلوم ما لهيت في ذلك الحين من الأهمية الكبرى والخطرة لمجاورتها البرية الشاسعة

ودع أهله وحمل نساءه وحريمه وأولاده وأمواله وخرج من الكوفة، حتى صار إلى السوس فنزلها ومعه زهاء عشرة آلاف من أصحابه وسائرهم قد تفرقوا في البلاد<sup>(١)</sup>.

وكان الحجاج في موضعه ذلك بدير الجماجم لا يبرح حتى علم أن ابن الأشعث قد خرج فأقبل حتى دخل الكوفة وتلاحقت به الناس من دير الجماجم، ثم دخل الحجاج إلى قصر الإمارة ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه من كل ناحية. وكان كل شخص يبايع إلا قال له: أشهد أنك كفرت، فإن قال لنعم. بايعه، وإلا قتل، فاتاه رجل من خثعم كان معتزلاً للناس جميعاً فسأله عن حاله فأخبره باعتزاله، فقال له الحجاج أنت متربص، أشهد أنك كافر؟ قال الرجل: بئس الرجل أنت أنا عبد الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر! قال الحجاج: إذا أقتلك.

قال الرجل: وإن قتلتنني، فقتله الحجاج صبراً ولم يبق أحد من أهل العراق وأهل الشام إلا رحمه.

### عوامل إخفاق جند عبد الرحمن في معركة دير الجماجم

١. الجيش الأموي كان يفوق على جيش ابن الأشعث في العدد فقد كان عدده ثلاثة وتسعين ألفاً وابن الأشعث في زهاء ستين ألفاً<sup>(٢)</sup>.

٢. سقوط سبعة عشر ألف قتيل في جيش ابن الأشعث مما أثر على أصحابه الذين وضعوا السلاح جانباً.

٣. يرون قتل الحجاج جهاداً ومنهم (محمد بن سعد، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وعبد الله بن شداد بن الهاد اللبثي، وعامر بن شراحيل الشعبي، ووراذان أبو عمر مولى كندة، وأبو البخري الطائي، ومسلم بن يسار، وسعيد بن حبيب، وكميل بن زياد النخعي اليماني). وأشباههم من الناس من عباد وزهاد. يصف الطبري الحالة بعد مقتل جبلة بن زحر:..... بأن ظهر على وجوههم الكآبة والفسل، أما أهل الشام فإنهم قد سروا بذلك سروراً عظيماً، وعندما جيء برأس جبلة إلى الحجاج وضعه على رمحين وقال لهم: يا أهل الشام ابشروا هذا أول الفتح<sup>(٣)</sup>.

ليس المقصود من كلام الطبري الكآبة والفسل لحقت بهم من جراء المعركة وإنما لمقتل جبلة لأن هؤلاء القراء كلهم أصحاب منزلة رفيعة في العلم والتقوى وعدم الخوف.

٤. الكمين الذي نصبه جند الحجاج لجند ابن الأشعث فقد خرجت فرقة من الخيالة والتفت من ورائهم، فمروا منهزمين لا يقف أحد على أحد حتى دخلوا الكوفة.

(١) الفتوح ج ٧ ص ٩٣

(٢) الفتوح ج ٧ ص ٩٢

(٣) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٦٨

(٤) الانتفاضات الشيعية، ص ٣٦٠

(٥) الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٤٨١

وغيرها من المصادر المتأخرة والمتقدمة و كلها نصت على عدالة كميل بن زياد وقد اعترف به المخالف والمؤالف.

وقد رأى بعض المؤرخين أن ثورة ابن الأشعث تعود في الأصل إلى حقد عميق متبادل بينه وبين الحجاج، وآخرون يعتقدون انه حق طبيعي أن ينشب النزاع بين حاكم من دهماء الناس وعامتهم ونبيل من اسر كندة وُضع تحت أوامر الحجاج.

ويبدو أن لا مجال للبحث عن أسباب فتنة ما في العواطف والمشاعر الشخصية لان الثورة تطورت إلى مجابهة بين موالي البصرة والكوفة وبين العرب المسلمين بل وفسحت المجال ايضاً للعراقيين أن يحاولوا مجدداً إلى، كسر نير الشاميين متذرعين بالنقمة العامة ضد الأمويين - أئمة الضلال - وحتى يتجنب الحجاج الاحتكاكات والخلافات بين القوات الشامية وسكان البصرة والكوفة قام ببناء مدينة واسط عام (٨٣ - ٨٦ هـ) - (٧٠٢ - ٧٠٥ م) وهي مدينة حقيقية محصنة في منتصف الطريق بين البصرة والكوفة<sup>(٢)</sup>.

إن الحجاج منذ بداية تأسيسه لمدينة واسط كان يرى أن تكون في مكان خصب لإمكان استغلال أراضيها، فتكون مرفقاً للرعية ومصدر رزق لها، كما تكون مورداً أساسياً لبيت المال بما تدره من ضرائب تفرض على مزروعات تلك الأراضي لذا كانت إصلاحاته للأراضي الزراعية، ومساعدته للفلاحين عملاً هدف من ورائه إعمار البلاد، ورفع مستوى الجباية. فلقد ذكرت المصادر أن مقدار الخراج بلغ في زمن الحجاج ثمانية عشر مليون درهم<sup>(٣)</sup>، وهناك روايات تزيده إلى خمسة وعشرين مليون درهم، وثمانية وعشرين مليون درهم، وأربعين مليون درهم، وستين مليون درهم وثمانين مليون درهم، ومائة وثمانية عشر مليون درهم. أن هذا التباين الكبير في أرقام كمية الخراج في عهد الحجاج يعود إلى تشويه الرواة للأخبار المتعلقة بالحجاج، يضاف إلى ذلك أن طول المدة التي حكم فيها العراق أدت إلى اختلاف كمية الخراج تبعاً لجبايته في السنوات المختلفة<sup>(٤)</sup>.

أما من الناحية التجارية، فللموقع الجغرافي المهم الذي احتلته مدينة واسط بين البصرة والكوفة والمدائن والأحواز، قد منح المدينة أهمية تجارية كبيرة فقد كانت ملتقى عدة طرق تجارية داخلية وخارجية، الأمر الذي جعل الحجاج يولي هذا الجانب اهتماماً كبيراً حيث عمل على إنشاء كل ما يؤدي إلى

التي تفصل بين العراق وبين الشام أولاً، ولقربها من أعمال معاوية ثانياً كقرقيسا وغيرها من البلدان<sup>(١)</sup>.

وقد روى الحديث عن عبد الله بن مسعود، وروى الحديث عنه كل من أبي اسحق السبيعي، والعباس بن زريح، وعبد الله بن يزيد الصهباني، وعبد الرحمن بن عباس، والأعمش وهو سليمان بن مهران ويكنى أبا محمد مولى لبني كاهل من بني أسد. وقد مدحه أرباب التاريخ والسير أمثال:

| ت  | اسم الكتاب                               | اسم المؤلف              | سنة الوفاة      |
|----|------------------------------------------|-------------------------|-----------------|
| ١  | تاريخ الإسلام                            | شمس الدين الذهبي        | ٧٤٧هـ / ١٣٤٦ م  |
| ٢  | البداية والنهاية                         | ابن كثير الدمشقي        | ٧٧٤هـ / ١٣٧٢ م  |
| ٣  | شذرات الذهب في أخبار من ذهب              | ابن عماد الحنبلي        | ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩ م |
| ٤  | الإصابة في تمييز الصحابة                 | ابن حجر العسقلاني       | ٨٥٢هـ / ١٤٤٨ م  |
| ٥  | الطبقات الكبرى                           | محمد بن سعد البصري      | ٢٣٠هـ / ٨٤٤ م   |
| ٦  | شرح نهج البلاغة                          | ابن أبي الحديد المعتزلي | ٦٥٦هـ / ١٢٥٨ م  |
| ٧  | الكنى والألقاب                           | عباس القمي              | ١٣٥٩هـ          |
| ٨  | روضات الجنات                             | السيد الخوانساري        | ١٣١٣هـ          |
| ٩  | تعليقات الوحيد البهبهاني على منهج المقال | الشيخ الوحيد البهبهاني  |                 |
| ١٠ | مجمع البحرين                             | فخر الدين الطريحي       | ١٠٨٥هـ          |
| ١١ | رجال الطوسي                              | الشيخ الطوسي            | ٤٨٥هـ           |
| ١٢ | تنقيح المقال                             | عبد الله المامقاني      | ١٣٥١هـ          |
| ١٣ | كتاب الرجال                              | ابن داود الحلبي         | ٧٠٧هـ           |
| ١٤ | تاريخ الكوفة                             | للسيد البراقي           | ١٣٣٢هـ          |

(١) كميل بن زياد ص ٢٥

(٢) الشرق الإسلامي في العصر الوسيط ص ١٥٨

(٣) الاعلاق النفيسة / ص ١٠٥، -دب الكتاب، ص ٢٢٠

(٤) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري

أما كتابات الظهر فشملت على المركز الذي يضم سورة الإخلاص كاملة بدون كلمتي ((قل هو)) في أربعة أسطر أفقية متوازية تحيطها دائرة منقطة ثم يأتي نص الطوق والذي يحاط بدوره بدائرة منقطة أخرى ثم تأتي خمس حلقات صغيرة تتوزع على قطر ظهر المسكوكة ويستمر وجود الحلقات الخمس الصغيرة على ظهر المسكوكات الفضية الأموية حتى سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م.

أما المسكوكات الفضية المضروبة بواسطة في سنة ٨٤ هـ / ٧٠٣ م وبعض من مسكوكات سنة ٨٥ هـ / ٧٠٤ م، فإن حرف ((الواو)) من نص مركز الظهر الواقع بعد كلمة ((يلد)) ينتقل إلى بداية السطر الثالث، لكن ذلك لم يستمر حيث يلاحظ في بقية مسكوكات سنة ٨٥ هـ / ٧٠٤ م وحتى سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م، إن ظهور حرف ((الواو)) استمر بعد كلمة ((يلد)) أما قياسات المسكوكات الفضية المضروبة بواسطة من سنة ٨٣ - ٩٥ هـ / ٧٠٢ - ٧١٣ م، أي فترة إمارة الحجاج بن يوسف فقد تراوحت بين: الوزن يتراوح بين (٥٠ - ٩٥) غم، القطر يتراوح بين (٢٦ - ٢٩) ملم.

### الحجاج ومقتل سعيد بن جبير

وبعد أن بنى الحجاج مدينته واسط وسكن بها قام بتفتيش دموي عن أصحاب الإمام علي (عليه السلام) ومنهم الصحابي الجليل سعيد بن جبير<sup>(٤)</sup>، فكان من التابعين وكان معروفاً بالعفة والزهد والعبادة وعلم التفسير وكان يسمى جهيز العلماء كان يصلي خلف الإمام السجاد (عليه السلام) فأخذه خالد بن عبد الله القسري وأرسله إلى الحجاج فلما رآه قال له: أنت شقي

بني كسير، فقال: أُمي اعرف باسمي منك.

قال له الحجاج: ما تقول في أبي بكر وعمر، هما في الجنة أو في النار؟

قال سعيد: لو دخلت الجنة لعلمت مَنْ فيها ولو دخلت النار ورأيت أهلها لعلمت مَنْ فيها.

قال الحجاج: ما تقول في الخلفاء؟

(٤) سعيد بن جبير (٤٥-٩٥ هـ) هو سعيد بن جبير بن هشام الأسدي بالولاء، مولى بني والبة بن الحارث بطن من بطون بني أسد بن خزيمه، أحد أعلام التابعين تتلمذ على يد عبد الله بن عباس في الفقه والتفسير والحديث، وروى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، كان عالماً بالفقه والتفسير ومسائل الحلال والحرام، اشترك في ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج الثقفي، وعندما قبض عليه الحجاج وقبل أن يقتله قال سعيد داعياً: اللهم لا تحل له دمي ولا تمهله من بعدي. فذبح واحتز رأسه، ولم يزل الحجاج بعد قتله سعيداً فزعاً مرعوباً حتى منع النوم وجعل يقول: ما لي يا سعيد بن جبير. قتل سعيد وله من العمر (٤٩) عاماً وقبره الآن في واسط يزار بها. لمزيد من التفاصيل انظر: كتاب سعيد بن جبير، ص ١٥

نهضة التجارة وتطورها من أسواق وأنهار وجسور وطرق، مدركاً بذلك أن النهضة التجارية تزيد من إيرادات بيت المال<sup>(١)</sup>.

كما أمر الحجاج ببناء أسطول تجاري يتكون من سفن كبيرة لتسير في عرض البحار والمحيطات وهي من النوع «المقيرة والمسمرة غير المخروزة المدهونة وغير ذوات الجأجى»<sup>(٢)</sup> وكان هذا النوع يستخدمه التجار للذهاب إلى الهند والشرق الأقصى، وكان في كل سفينة عدد من الأشخاص يتولون حراستها من القراصنة ولصوص البحار.

واتبع هذا الأمير سياسة حرية التجارة فلم يقيد نقل السلع بين مختلف المقاطعات سواء في العراق أم في المشرق الإسلامي، كما أنه لم يحتكر تجارة أي بضاعة أو يمنع مبادلته. وهكذا صارت مدينة واسط مركزاً تجارياً عظيماً في عهد الحجاج وخلفائه من الأمراء<sup>(٣)</sup>.

من خلال العرض المتقدم لأعمال الحجاج في الجوانب الزراعية والتجارية والصناعية إضافة إلى الفتوحات العسكرية، التي قام بها الحجاج، وبما أن واسط منذ بنائها أصبحت المركز الإداري للعراق والمشرق الإسلامي فقد أدى ذلك إلى أن ترد هذه المدينة سنوياً كميات كبيرة من المسكوكات سواء من الخراج أو فيء أو غنائم الحروب أو عشور التجارة وغيرها من الموارد، وكان يوزع منها في العطاء، ورواتب الموظفين، وتكاليف المنشآت العامة، والحملات العسكرية، يرسل ما تبقى منها إلى بيت المال المركزي بدمشق مما ساعد ذلك على انتعاش الحياة الاقتصادية في مدينة واسط لذلك يكون من البديهي أن تتجه رغبة الناس نحو التوسع والعمران كما وتزداد حاجتهم إلى المواد الكمالية هذه الرغبات والحاجات كلما ازدادت زادت الحاجة للمسكوكات لذلك كان على الدولة أن تؤدي ما عليها من واجب لسد هذه الحاجة. لقد ظهرت المسكوكات الفضية المضروبة بواسطة في عهد الحجاج بدءاً بسنة ٨٣ هـ / ٧٠٢ م بالشكل التالي: -

تشمل كتابات مركز الوجه شهادة التوحيد موزعة في ثلاثة أسطر يحيطها الطوق المتضمن بالبسملة غير كاملة ((بسم الله)) ونوع المسكوكة ((درهم)) ومكان الضرب بواسطة وسنة الضرب ((ثلث وثمانين)) ثم يحيط بالمركز والطوق ثلاث دوائر متوازية منقطة لتأتي بعدها خمس حلقات صغيرة تحيط بقطر المسكوكة.

(١) تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ص ٣٦٢

(٢) الجاجي: جمع جوجؤ: عظام صدر الطائر وجوجؤ السفينة والطائر صدرهما

(٣) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري



قال سعيد: لستُ عليهم بوكيل.

قال لهُ الحجاج: أيهم أحب إليك؟

قال سعيد: أرضاهم لله.

قال الحجاج: فأيهم أرضى لله؟

قال سعيد: علمُ ذلك عند ربي

يعلم سرّهم ونجواهم.

قال الحجاج: أبيت أن تصدقني.

قال: بل لم أحب أن اكذب.

فأمر الحجاج بقتله.

فقال سعيد: وجهتُ وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين.

فقال الحجاج: شدوّهُ إلى غير القبلة.

فقال سعيد: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١١٥).

فقال الحجاج: كبّوه على وجهه.

فقال سعيد ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ (طه: ٥٥) ثم ضربت عنقه.

قال ابن الأثير: لما سقط رأس سعيد إلى الأرض هلّ ثلاثاً، أفصح بمرّة ولم يفصح بمرتين ولما قتل التبس عقل الحجاج وكان يقول: قيودنا قيودنا، وإذا نام يرى سعيداً في منامه آخذاً بمجامع ثوبه ويقول يا عدو الله فيما قتلتنى،، لقد أصيب الحجاج بمرض في معدته عذبه خمسة عشر يوماً أيقن أثناءها بالهلاك وحين رآه الطبيب أخذ لحماً وعلقه في خيط وادخله في حلق الحجاج ساعة ثم أخرجه وقد لصق به دود كثير وقد سلط الله عليه مرض الزمهرير فكانوا يحيطونه بمواقد تشع منها النيران لتدفئته فكانت تدنى منه حتى تحرق جلده وهو لا يحسُّ بها. يقول الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أمة بخبيثتها وجئنا بالحجاج لغلبناهم<sup>(١)</sup>.

ولم يختلف هشام بن عبد الملك عن سابقه بل غذى أخطاء الأمويين وأضاف ظلماً إلى ظلمهم، وطغياناً إلى طغيانهم، فكتب إلى عماله بالتشديد والتضييق على الشيعة وحبسهم ومحو آثارهم والفتك بهم وحرمانهم من العطاء وهدم دار الكميّ شاعر أهل البيت وأمر عامله بالكوفة أن يقطع لسانه لأنّه مدح آل البيت وفي عهده ثار زيد بن علي بن الحسين (عليه السلام) فقتلوه فكان أبنة يحيى حريصاً على أن يدفن أباه بحيث لا يعلم بموضعه أحد فدفعه في ساقية ووردها ووضع عليها النبات لكيلا يعلم أحد بمكان جثمانه الطاهر، ولكن

(١) الشيعة والحاكمون ص ٩٦، ١٠١

أحد الذين عرفوا ذلك أنبا والي الأمويين فنشوا قبره وأخرجوا الجثمان ومثلوا به ونصبوه بكناسة الكوفة بأمر من هشام بن عبد الملك، ولم يكتف الأمويون بقتل زيد حتى أخرجوه وقطعوا رأسه وصلبوه على خشبة وبقي خمس سنوات مصلوباً عرياناً إلى أن جاء الوليد بن يزيد فكتب إلى عامله بالكوفة أن أحرق زيدا بخشبة وأذر رماده ففعل وأذرى رماده على شاطئ الفرات، فارتكبوا إثماً كبيراً فوق آثامهم<sup>(٢)</sup>.

هذه سنة الأمويين وسنة أولهم وآخرهم شتم علي وفاطمة والحسن والحسين وقتل أبناء الرسول والتنكيل بهم والسير برؤوسهم من بلد إلى بلد.

يقول أحد المستشرقين الألمان عن معاوية بن أبي سفيان: ينبغي لنا أن نقيم لمعاوية تمثالاً من الذهب في برلين العاصمة!! فقيل له لماذا؟

قال: لان معاوية هو الذي حول نظام الحكم الإسلامي عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية، ولولا ذلك لعم العالم كله إذن الإسلام ولكننا نحن الألمان وسائر شعوب أوربا عرباً مسلمين!!<sup>(٣)</sup>.

### خصائص حكم الحجاج في العراق

كان الحجاج سفاكاً بطبعه يقتل الناس حتى الشيوخ والصبيان لا شيء إلا حباً بالقتل وإراقة الدماء وكانت تهمة التشيع المبرر الوحي لضرب الأعناق قال ابن أبي الحديد: قال الإمام الباقر قُتلت شيعتنا بكل بلد وقطعت الأيدي والأرجل على الظنّة، وكان من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله أو هدمت داره، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمن عبيد الله بن زياد قاتل الحسين، ثم جاء دور الحجاج فقتلهم كل قتلة وأخذهم بكل ظنة وتهمة حتى أن الرجل ليقال له: زنديق أو كافر أحب إليه من أن يقال شيعة علي (عليه السلام)<sup>(٤)</sup>.

يقول الدكتور علي الوردي: لقد اشتد الحجاج في مطاردة الشيعة وتعذيبهم وصلبهم على جذوع النخل<sup>(٥)</sup> ولذلك كانت أيام الحجاج أشد هولاً على الشيعة من أيام معاوية ويزيد باستثناء يوم الطف وإذا علمنا أن في عهد الحجاج كان يفضل للرجل أن يقال له أنت زنديق أو كافر على أن يقال له شيعة.

وقد اعترف الحجاج نفسه بالفظائع التي ارتكبها بحق الشيعة وقال يوماً لأهل الكوفة: يا أهل الكوفة إنني أريد الحج وقد استخلفت عليكم ولدي محمداً وأوصيته أن لا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم.

(٢) المصدر السابق ص ١١٦

(٣) الوحي المحمدي ص ٢٣٢

(٤) المصدر السابق ص ٩٤

(٥) مهزلة العقل البشري ص ٨١

قال: نعم. قال له: ابرأ من دين علي. فقال: هل تدلني على دين أفضل من دينه؟ قال: إني قاتلك فأختر أية قتلة أحب إليك. قال أخبرني أمير المؤمنين أن ميتتي تكون ذبحاً بغير حق، فأمر به فذبح كما تذيب الشاة<sup>(٤)</sup>.

قال ابن الأثير: إن الحجاج لما فرغ من أمر ابن الزبير دخل مكة فبايعه أهلها وسار إلى المدينة فأساء إلى أهلها واستخف بهم وختم أيدي جماعة من الصحابة بالرصاص استخفافاً بهم ومن هؤلاء جابر بن عبد الله الأنصاري وسهل بن سعد وأنس بن مالك<sup>(٥)</sup>.

قال المسعودي: كان عبد الله بن هاني من أنصار الحجاج وكان دميماً شديداً الأدمة مجدوراً في رأسه أعجز مائل الشدق أحول قبيح الوجه فزوجه الحجاج بقوة السيف من بنت أسماء بن خارجة وكان من فزارة وهي بنت سعيد بن قيس الهمداني رئيس اليمانية.

فقال له الحجاج يوماً: يا عبد الله قد زوجتك بنت سيد بني فزارة وابنة سيد همدان فقال له: لا تقل ذلك، فإن لنا مناقب ما هي لأحد من العرب، قال الحجاج وما هي؟

قال: ما سب عثمان في ناد لنا قط قال الحجاج: هذه والله منقبة، قال: وشهد منا صفين مع معاوية سبعون رجلاً وما شهدها مع أبي تراب منّا إلا رجل واحد وكان أمراً سوء.

قال الحجاج: وهذه والله منقبة.

قال: وما تزوج أحد منّا امرأة تحب أبا تراب ولا تتولاه.

قال الحجاج: والله منقبة.

قال: وما منا امرأة إلا نذرت إن قُتل الحسين أن تنحر عشرة جمال (جزر) لها ففعلت.

قال الحجاج وهذه والله منقبة. قال وما منّا عُرِضَ عليه شتم أبي تراب ولعنه إلا فعل وقال أزيدكم ابنيه الحسن والحسين وأمهما فاطمة.

قال الحجاج: وهذه منقبة<sup>(٦)</sup>.

وقد أصيب الحجاج في آخر عمره بما يظهر أنه سرطان المعدة. وتوفي بمدينة واسط في العشر الأخير من رمضان ٩٥ هـ (٧١٤ م) وقد حكم العراق من ٧٥-٩٥ هجرية / ٦٩٤-٧١٣ ميلادية وتخلص العراق من ظلمه وقهره وجبروته وتبدأ صفحة جديدة من تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي تحت حكم الوليد بن عبد الملك.

ومن المعلوم أن أهل الكوفة كلهم أو جلهم شيعة.

وهكذا تراكت الأهوال على الشيعة من عهد معاوية وزياد بن أبيه إلى يزيد وعبيد الله بن زياد إلى عبد الملك بن مروان والحجاج إلى ما هو أدهى وأمر<sup>(١)</sup>.

قال المؤرخ المسعودي في مروج الذهب: تأمر الحجاج على الناس عشرين سنة وأحصى من قتله صبراً سوى من قتل في عساكره وحروبه، فوجد مائة وعشرين ألفاً، ومات الحجاج وفي حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة منهن ستة عشر ألف مجردة عارية من الثياب وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد ولم يكن للحبس ستر يستتر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر في الشتاء وكان له غير ذلك من العذاب<sup>(٢)</sup>.

وعن تاريخ ابن الجوزي أن سجن الحجاج كان مجرد حائط يحوط السجناء ويمنعهم من الخروج ولا سقف له فإذا أوى المسجونون إلى الجدران يستظلون بها من حرّ الشمس رمتهم الحرس بالحجارة وكان يطعمهم خبز الشعير مخلوطاً بالملح والرماد وكان لا يلبس الرجل في سجنه إلا يسيراً حتى يسود ويصير كأنه زنجي، وقد حبس فيه غلام فجاءت أمه بعد أيام تنفقده فلما قدم إليها أنكرته، وقالت: هذا ليس ولدي هذا زنجي! وحين تأكدت أنه ولدها شهقت وماتت في مكانها<sup>(٣)</sup>.

في أحد الأيام أتى للحجاج برجلين من الشيعة فقال لأحدهما: ابرأ من علي فقال له: وماذا فعل حتى ابرأ منه؟

قال الحجاج: قتلني الله إن لم أقتلك، فأختر لنفسك قطع يديك أو رجلك فقال له الرجل: اختر أنت لنفسك أي قتلة تريد أن أقتلك بها غداً، فإن الله سبحانه وتعالى سيجعل لي القصاص منك فأفعل بك ما تفعله بي الآن، فقال له الحجاج ساخراً: أين ربك؟

قال: هو بالمرصاد لكل ظلم. فأمر بقطع يديه ورجليه وصلبه، ثم التفت إلى الآخر وقال له: ما تقول أنت؟

فقال له: أنا على دين صاحبي هذا الذي قتلتته، فأمر أن تضرب عنقه.

وأصبح الحجاج ذات يوم فقال لجلالوته: أحب أن أصيب رجلاً من أصحاب أبي تراب.

فقالوا: ما نعلم أحداً كان أطول صحبة له من مولاه قنبر، فبعث في طلبه وقال له: أنت قنبر؟

(١) الشيعة والحاكمون ص ٩٩

(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ١٧٦

(٣) الشيعة والحاكمون ص ٩٨

(٤) المصدر السابق ص ٩٥

(٥) الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٣٥٨

(٦) مروج الذهب ج ٣ ص ١٥١

## مصادر البحث

### القرآن الكريم

#### ❖ أولاً: المصادر العربية:

١. ابن كثير عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي: البداية والنهاية في التاريخ، مطبعة السعادة، القاهرة، د. ت
٢. ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم: المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٠.
٣. -----: الإمامة والسياسة، تحقيق طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٩٣
٤. ابن اعثم الكوفي: الفتوح، تحقيق علي شيري، دار الأضواء، بيروت، ١٩٩٢
٥. ابن خردادبة: المسالك والممالك، طبعة بريل، ١٨٨٩
٦. أحمد بن اسحق بن جعفر بن البغدادي اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، علق عليه خليل المنصور، مطبعة مهر، قم ١٤٢٥هـ
٧. أنيس زكريا النصولي: الدولة الأموية في الشام، مطبعة دار السلام، بغداد، ١٩٢٧
٨. أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ط٧، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٨٤
٩. إبراهيم الانصاري: كتاب الخراج، ط٣، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٢هـ
١٠. الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري: كتاب الاوائل - تحقيق محمد السيد الوكيل، المدينة المنورة، ١٩٦٦
١١. اسهل بن سهل الرزاز الواسطي بحشل: تاريخ واسط تحقيق كوركيس عواد، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٦
١٢. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤
١٣. حسن عباس حسن: الفكر السياسي الشيعي الأصول والمبادئ، الدار العالمية للطباعة، بيروت، ١٩٨٨
١٤. جمال الدين بن نباته المصري: سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٤
١٥. فليب حتي: تاريخ العرب، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، ١٩٥٠
١٦. علي بن أبي المكارم الشيباني (ابن الأثير): الكامل في التاريخ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٩

١٧. عبد الأمير الدكسن: الخلافة الأموية، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣
١٨. علي بن الحسين الهاشمي: سعيد بن جبير، تحقيق المؤسسة الإسلامية للبحوث والمعلومات، دار الهدى، قم، ٢٠٠٣
١٩. علي حسني الخربوطلي: تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩
٢٠. علي بن الحسين المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الأنوار، بيروت، ٢٠٠٩
٢١. علي محمد الصلابي: الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٥
٢٢. علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٩٦٦
٢٣. علي الوردي: مهزلة العقل البشري، دار كوفان، الطبعة الثانية، لندن، ١٩٩٤
٢٤. صالح أحمد العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٥٣
٢٥. محمد بن يحيى الصولي البغدادي: أدب الكاتب، باعثناء محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤١هـ
٢٦. محمد بن الحسن الحنبلي: الأحكام السلطانية، مطبعة أولاد مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٣٥٧ هجرية
٢٧. محمد بن عبدوس الجهشياري: الوزراء والكتاب - ط١ - مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨
٢٨. محمد بن أحمد البيروني: كتاب الجماهر في معرفة الجواهر، حيدر آباد الدكن، ١٣٥٥هـ
٢٩. محمد بن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٩
٣٠. محمد جواد مغنية: الشيعة و الحاكمون، المكتبة الأهلية، بيروت، د. ت.
٣١. محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، مؤسسة عز الدين، بيروت، ١٩٨٦
٣٢. مصعب بن عبد الله الزبيدي: نسب قريش، صححه وعلق عليه ونشره ليفي بروفنسال، مطبعة الشريعة، قم، ٢٠٠٧

٤. نيكيتا أيليسيف: الشرق الإسلامي في العصر الوسيط، ترجمة منصور أبو الحسن، دار الكتاب الحديث، بيروت، ١٩٧٣

٥. يوليوس فلهوزن: تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٨

#### ❖ ثالثاً: المجالات والدوريات:

١. الدكتور صالح احمد العلي: منطقة الكوفة دراسة طبوغرافية مستندة إلى المصادر الأدبية، مجلة حولية الكوفة، العدد الأول، لسنة ٢٠١١.

٢. الدكتور فكتور الكك: من أعمال الاستشراف الألماني، مجلة الفيصل، الرياض، العدد ١٠٣، تشرين الأول - أكتوبر، لسنة ١٩٨٥



٣٣. نزار البو سعيد: جذور الشبهات قراءة في فكر الخوارج، دار البراق، لندن، ١٩٩٦

٣٤. هاشم معروف الحسني: الانتفاضات الشيعية عبر التاريخ، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٠

#### ❖ ثانياً: المصادر المترجمة

١. فان فلوتن: السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية، ترجمة حسن إبراهيم حسن، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٣٤

٢. \_\_\_\_\_: السيطرة العربية والتشيع والمعتقدات المهدية في ظل خلافة بني أمية، ترجمة الدكتور إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٦

٣. كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٠.